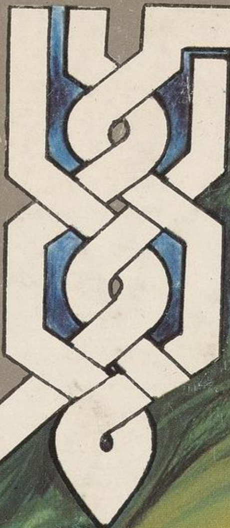


منظمة الاعلام الاسلامي
قسم العلاقات الدولية -



الاخلاق

عند الامام الصادق ع

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخلاق

عند الامام الصادق ع



العلامة
محمد امين زين الدين



الكتاب: الاخلاق عندالامام الصادق

المؤلف: العلامة محمد امين زين الدين

الناشر: منظمة الاعلام الاسلامي ــ قسم العلاقات الدولية

المطبعة: سپهر

التاريخ: جمادى الاول؛ ١٤٠٣هـ

عددالنسخ المطبوعة: ١٠،٠٠٠ نسخة

الفهرست

مقدمة الناشر

يسر منظمة الاعلام الاسلامي ان تقوم بتقديم هذا الكتاب الصغير الحجم والكبير الفائدة وهو يتناول موضوعاً هاماً ركزت عليه مدرسة الامام الصادق (عليه السلام) ايما تركيز، و جعلته معياراً للايمان وهو موضوع (الاخلاق الحميدة).

و قد قام ببحث هذا الموضوع استاذنا الجليل العلامة زين الدين.
وهو من تأصلت فيه المناقبية الاسلامية وربى عليها جيلاً من الواعين.

فالى مطالعة الكتاب بدقة و عمق ندعو الاخوة القراء الاعزة.

قسم العلاقات الدولية
منظمة الاعلام الاسلامي

توطئة :

(١)

للبيان حق الايضاح و التصوير، و للفكر سلطة النقد و التحليل، و للحق فوق هذا وذاك حكومة عادلة تنير الهدى للبصير، و ترغم العادي بالحجة، و الكاتب مدين للحق في تفكيره، قبل أن يكون مديناً في تصويره.

للكاتب ان يتفنن في حديثه ما يشاء له الذوق، و أن يتعمق في بحثه ما تسمح به قوة النظر، و لكن عليه قبل ذلك أن يتخذ من الحق دليلا، و من العلم الصحيح مرشداً، عندما يريد ان يعرض على قرائه عظيما من عظماء الانسانية، و معجزة من معجزات القرون، ولاسيما اذا كان هذا العظيم من أمثال جعفر بن محمد الصادق، مثال العقل السامي، و الانسانية الكاملة.

ستعترض الباحث في طريقه اسرار، و ستقف أمامه شؤون وألغاز، يقف دون حلها وقفة الحائر و لعله يرجع عنها رجعة الخاسر، إلا أن يسترشد بهدى العلم الصحيح.

أقف عند ملتقى الخطوط من عبقرية الامام جعفر بن محمد فتتملكني دهشة لم أكن أعهدها لنفسي، و يكاد اليراع ان يكبو من يدي، و تموت الكلمات على شفتي. لم يعودني عليه البيان من قبل، ولم يخني في مثله التفكير.

تلك هي مزالق الفكر البشري المحدود اذا اراد ان يسمو الى آفاق غير محدودة، و حيرة المصور حين يلتقي باضواء غير متناهية.

بماذا يحيط الفكر المحدود من هذه الآفاق ليخصه بالتحليل، و ماذا يعين المصور من هذه الاضواء المتشابكة ليفرده بالتصوير، أي النواحي من الامام جعفر بن محمد أقدمها للقراء، و أية خاصة منه أتناولها بالبحث، و كل ناحية منه حرية بالبحث و كل خاصة منه جديرة بالتحليل، كل نواحي جعفر بن محمد علم، و كل خواصه إعجاز..

و بعد أمر وأمر اخترت علم الاخلاق موضوعاً لحديثي عن الامام الصادق (ع) و ليس عليّ أن يرتضي جميع القراء مني هذا الاختيار، مادمت حراً في الارادة و كانوا احراراً مثلي، و مادام علم الاخلاق من النفائس النادرة في ميراث الامام، و لكل ارادته و اختياره.

الاخلاق: هو العلم الذي يبعث الكمال في النفس البشرية، وينمّي القوة والاستقلال في العقل البشري، و هو العلم الذي يساير الانسانية في اتجاهاتها، و يوجهها عند حيرتها، و يأخذ بيد العقل عند اضطرابه، و يمده بالقوة عند ضعفه، وعلم الاخلاق هوالرسالة العامة التي يجب على كل حي مدرك ان يبلغها الى كل حي مدرك، وهو الأمانة الكبيرة التي يجب على كل كائن عاقل ان يؤديها الى كل كائن عاقل.

لهذا ولأمثاله اخترت علم الأخلاق موضوعاً لحديثي عن الامام الصادق (ع) وان لم يكن أجلَّ مميزات الامام ولا ابرز خواصه، على أن للامام عناية خاصة بعلم الأخلاق تكفي الباحث حجة على هذا الاختيار، و من أثر هذه العناية أن طابع علم الأخلاق يكاد يظهر على كل كلمة نقلت عن الامام و على كل أثر نسب اليه.

لم أقصد في بحثي هذا ان أتحدث عن الوجهة الخلقية في نفس الامام الصادق (ع) فان هذه الوجهة نفسية تهم الباحث عن عظمة الامام في

شخصيته، أما الذي يبحث عن عظمة الامام في علمه فعليه أن يتحدث عن علم الأخلاق عنده، و ان كانت الوجهة الثانية تكشف عن الأولى في الأكثر.

(٢)

لم يعتمد الامام جعفربن محمدفي أخلاقه على نظرية استفادها من فيلسوف، ولا قاعدة أخذها من حكيم، و لكنه استقاها من ينبوع الوحي و استفادها من هدي القرآن، نعم انه لم ينتسب الى مدارس الفلسفة فى أثينا، ولم يخضع لبيوت الحكمة في الهند، ولكن الفلسفة بعض ما تخرج فيه من جامعة القرآن، والحكمة بعض الفروع التي تلقاها في مدرسة أبيه محمد، و إن فتى نمت شبيبته في بيت محمد، و كملت نفسيته بارشاد محمد، و امتزجت بروحه روحانية كتاب محمد جدير أن يكون غنياً عن فلسفة إفلاطون و حكمة أرسطو و المثالية و معتصرات العقول و نسائج الأفكار.

و لعل أثر هذه التر بية يظهر جلياً في أحاديث الامام (ع) و أحاديث الأئمة من آبائه و أبنائه، فان الباحث قد يجد الأ ثر الواحد مرو ياً عن أكثر من إمام واحد و إذا استقصى في بحثه وجد الحديث بلفظه و معناه مرو ياً عن جدهم الاكبر (ص) فمنه يقتبسون، و اليه ينتهون، كالاشعة من النور، و كالثمرة من الشجرة.

(٣)

الأخلاق إحدى الجهات الانسانية التي عني بها دين الاسلام، و اهتم بها اهتماماً كبيراً، و الذي يستقصي تعاليم الكتاب و إرشادات السنة يعلم مقدار هذا الاهتمام، و مبلغ هذه العناية، و هذه الظاهرة من الدين الاسلامي احدى مميزاته عن سائر الأديان، واحدى مؤهلا ته للخلود.

و هي جارية على ما تفرضه جامعية الدين، و جفاء اخلاق المتدينين، يوم غرس بذرته، و اذا كان شذوذ الاخلاق ناتجا عن تطرف في الغريزة أو إسفاف في العادة، او قصور في التربية، و اذا كانت أمراض الروح أشد فتكاً في معنويات الأمة، وأعظم أثراً في إبعادها عن الخير و السعادة، فجدير بالدين الجامع، و جدير بالمصلح المهذب أن يتكفل إتمام النقص في الأخلاق، و يتبين مواضع الخلل في النفس، و يعالج الخطر في الغريزة الموبوءة لِيُكَوِّنَ من الفرد عضواً صالحاً لمكانته من الأمة، و يجعل من الأمة مجتمعاً قابلا للعلم في سبيل الخير.

الاسلام دين فردي اجتماعي و هو في اجتماعيَّته فردي أيضاً، ينظر الاسلام في سعادة الفرد كما ينظر في سعادة الأمة، و يسعى لتهذيب الشخص كما يسعى لتنظيم المجتمع، و اذا كان صلاح الأمة مشروطاً بصلاح أفرادها كان اهتمام الدين بسعادة الفرد من ناحيتين:

تهمه سعادة الفرد لأنه ممن يجب إيصاله إلى الكمال.

و تهمه سعادة الفرد لانها شرط في سعادة الأمة. و كلتا هاتين الغايتين يدعو اليهما الدين الجامع. و اذن فلابد للاسلام أن يكون دين اخلاق، ولابد لقادة الدعوة فيه من بث روح الأخلاق، والامام جعفر بن محمد احد اولئك القادة. و بعض حملة ذلك المصباح.

كلنا نعلم أن الفلسفة الخلقية جزء من التراث القديم، بحث عنها الانسان حين بحث عن أحوال الوجود، و حين علم أن النفس البشرية من أهم أفراد هذا الوجود، و أن أخلاق هذه النفس من أبرز نواحيها، و من أظهر خواصها، و قد استنفد هذا البحث كثيراً من جهده، و طويلا من زمانه، حتى أتته النتائج منقادة كما يريد.

و لكن الذي نلاحظه أن العرب في أيامها الاولى لم تكن تسمع عن هذه الفلسفة شيئاً، ولم تلمح منها إلا ظلالا خفيفة أدركتها بغرائزها... نطق

بها حكماؤها و نظمها شعراؤها ، و ان الدين الاسلامي الذي نشأ بين هؤلاء العرب و الذي صدع بتعاليمه محمد العربي الأمي قد تعرض لعلم الاخلاق فيما تعرض له من النواحي ، فأسس له نظماً و قواعد تتمشى مع أدق الموازين في التطبيق ، و أشدها إحكاماً في القياس ، واكثرها انسجاماً مع الزمان المختلف و البيئات المختلفة .

نعم تعرض الاسلام لعلم الأخلاق بأساليب وجد العربي الامي فيها ما ادركه بالفطرة ، و قرأ فيها الفيلسوف ما اثبته بالبرهان و أكبر الجميع هذا الشرع الجديد الذي يعضد البرهان بالفطرة و يركز الفطرة على البرهان ، و يصلهما جميعاً بوحى السماء ليضمن لهما العصمة في الانتاج و الغزارة في المادة . و لعل الوقت يتسع لنا بعد هذا فنبحث الموضوع كما يقتضي العلم أن يبحث ، و لعلنا نحاسب الاستاذ أحمد أمين عن نظرته الى الاخلاق في الاسلام ، فان علاقتها باللفظ أشد من علاقتها بالمعنى والاستاذ حين يتسرع بارسالها يشبه البسطاء الذين يكتفون في معرفة الشيء بظواهره الشكلية .

(٤)

علم الأخلاق حق انساني مشاع ، لا يختص بطائفة من البشر دون طائفة ، ولا يحتكره فريق دون فريق ، و اذا كانت الخاصة هي التي اسست قواعده و شرعت نظامه ، فان العامة تشابهها في الحاجة ، و تشترك معها في الغاية ما دامت للجميع ملكات يجب تعاهدها بالاصلاح ، و غرائز يلزم اخضاعها للتوازن ، وما دامت لهؤلاء و هؤلاء اعمال يحكم عليها بالخير او الشر . و لجميعهم حق في السعادة و نصيب من الخير الأعلى .

و لست اذهب بعيداً حين اقول : حاجة العامة الى علم الاخلاق اكثر فهو بهم ألصق ، لان الامراض الخلقية في العامة من الناس اكثر شيوعاً ، و اعظم تفشياً ، و حاجة المريض الى الطب اشد من حاجة الطبيب .

علم الامام الصادق بذلك، وعلم ان لهؤلاء العامة افهاماً لا تقبل المصطلحات الغريبة، ولا تستسيغ العبارات البعيدة. فكان لزاماً عليه ان يوضحها لهم على حسب ما يدركون، و ان يترجمها لهم بما يفهمون، فكان من ابرع من اوضح، وادق من ترجم، على ان اكثر مايهتم به المثاليون من قادة الدين هي ناحية التطبيق من علم الأخلاق، لأنها اكثر دخلا في التوجيه الخلقي الذي يهتم به الدين. ولأن الوحي قد كفاهم مؤونة الاستقراء، و اراحهم من عناء البحث و التمحيص.

(٥)

لعلماء الحديث من شيعة اهل البيت (ع) حرص شديد على تدوين ما لأئمتهم من اقوال وارشادات، فهم يجمعون منها كل شاردة و واردة- ما تعلق منها بالفقه الجعفري، و ما تعلق منها بغيره- فكان من نتائج هذا الحرص ان دونت جوامع و جمعت دواوين، و كانت اخلاقيات الامام الصادق (ع) بعض ما دون.

تميزت الشيعة بذلك لالأن نصائح الائمة كانت خاصة بهم، بل لانهم اكثر اهتماماً بآثار أئمتهم، و اذا استثنينا هذه الوجهة فلم تكن الشيعة إلا بعض من تجب له النصيحة في رأي الامام (ع) فان حبه للخير و الاصلاح يأبى له ان يمنع النصيحة عن أيّ احد ينتفع بها.

لم يبخل الامام بنصيحة على مسلم يوماًما، و تعاليمه الخلقية لسفيان بن سعيد الثوري و زملائه الآخرين من رؤساء المذاهب بينة و اضحة على هذه الدعوى، و هو القائل: «خير الناس من انتفع به الناس» و الراوي عن ابيه النبي (ص): «من لم يهتم بامور المسلمين فليس منهم» و كل ما تتميز به الشيعة من ذلك انهم لتعاليمه اسمع، ولأقواله احفظ، و ان الامام هو

المسؤول عن تهذيبهم، لأنه عميد مذهبهم.

خلف لنا علم الا ثر ثروة كبيرة من اخلاقيات الامام الصادق (ع) يجدها الباحث منتشرة في فصول كتب الحديث، ولا سيا الاخلاقية منها، و لكنه لم يحفظ لنا كتاباً يختص بأخلاق الامام، اذا استثنينا (مصباح الشريعة) الكتاب الذي اثار بعض علماء الحديث عاصفة الريب في نسبته الى الامام الصادق، و كان لهم في امره شكوك و شكوك.

نعم ان علم الحديث لم يحفظ لنا كتاباً يختص بأخلاق الامام الصادق (ع) و لكنه حفظ انا بين طيّاته درراً من اخلاقه، و جواهر من عرفانه، لو اعتنى الباحثون بجمعها لألفوا مجموعة رائعة في العلم

اما كتاب (مصباح الشر يعة) فان نسبته الى الامام جعفر بن محمد اخذت دوراً مهماً كانت فيه حديث اهل النقد من علماء الحديث، وقد انقسموا فيه الى شطر ين، وكل ما اتى به النافون تشكيك وتردد، ولا يهمنا ان نتعرض

لا ثبات هذه النسبة او نفيها، ولا ان نستعرض ادلة المثبتين و شكوك الناقدين، فان لهذا النوع من البحث كتباً اخرى، على ان احاديث الاخلاق و السنن لا تحتاج الى عناية كبيرة في التوثيق، و قد اعتمد على كتاب (مصباح الشريعة) كثير من علماء الحديث و صححه جماعة من الأ ثبات، و هذا كاف في صحة الاعتماد عليه.

سماحاً ايها القارئ الكريم: لقد اطلنا بك الوقوف على المنعرجات، و تشعبت بنا الطرق عن الغاية، ولابد للكلام عن هذه النواحي ان يطول، فلنسر بعد هذا الى غايتنا و كان الله معنا.

محمد أمين زين الدين

(١)

الخلق

«إن الله ارتضى لكم الاسلام ديناً»
«فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق»

الامام الصادق(ع)

(١)
الخلق

كلمة الخُلُق تستعمل في اللغة بمعنى السجية، وبمعنى الطبع، و العادة، و الدين، و المروءة. و قد ذكر اللغو يون لكل واحد من هذه المعاني شواهد من اقوال العرب و امثالها.

و بين هذه المعاني صلة قريبة تكاد تجمعها في اطار واحد. ولعل معنى الكلمة في اللغة واحد و هذه المعاني افياؤه و ظلاله، و لعل هذا المعنى الواحد في اللغة هو الذي يعرفه الخُلُقيون من هذه الكلمة ايضاً، و ان كانت النصوص اللغو ية قاصرة عن اثبات ذلك.

و الخلقيون يعرفون من معنى هذه الكلمة انها ملكة من ملكات النفس، و يقولون ان اظهر خاصة تتميز بها هذه الملكة هي صدور الافعال عن الانسان من دون إمعان فكر او اعمال رو ية.

و يقول بعض الخلقيين (الخلق صورة الارادة) (١) و لعل هذا القائل

١) قول ينقله الاستاذ محمد أحمد جاد المولى بك في الجزء الاول من الخلق الكامل ص ٥١.

يحاول ان يبدل البيان ببيان آخر اكثر منه وضوحاً ، و اوفى شرحاً ، إلا انه لم يفلح في هذه المحاولة فاضطره الغموض الى شرح طويل ، ابعد فيه المعرف عن التعريف ، و اذا كان يريد من لفظ الصورة : الملكة الكامنة في النفس ، و المسخرة للارادة حين العمل لم يكن بين التعريفين مخالفة .

لكل انسان في نفسه صفات كثيرة العدد ، متباعدة الآثار؛ كالوفاء ، و الصدق ، و السخاء ، و الشجاعة. و هذه الصفات مصدر لاكثر اعماله ، والخلق من هذه الصفات النفسية هو ما تركز في النفس ، و انطبعت به انطباعاً كاملا .

و العلماء الخلقيون يبحثون في الدرجة الاولى عن هذه الملكات النفسانية من حيث انها تتصف بالاعتدال و الانحراف و تقبل التحوير و التهذيب ، اما الاعمال التي يصدرها الانسان باختياره ، و التي يحكم عليها العقلاء بالخير او بالشر فيسميها الخلقيون سلوكا ، و يبحثون فيها بحثاً ثانوياً ، من حيث انها مظهر خارجي للخلق الكامن ، ولان العمل من ناحية اخرى هو المفتاح لتهذيب الصفة النفسية اذا كانت منحرفة ، ولانحرافها اذا كانت مستقيمة .

و لذلك فلا يمكننا ان نعتبر العمل الاختياري موضوعاً لعلم الاخلاق ، و ان اصر على هذا الرأي الاستاذ احمد امين (*) و اطال في شرحه وايضاحه ، لا يمكننا ذلك لان هذا الرأي لا يتفق مع اصول العلم .

موضوع هذا العلم هو (الخلق) و الخلق صفة نفسية و ليست عملا من الاعمال ، و ان كان العمل الاختياري مظهرها الخارجي ، والاستاذ يقيم على هذا التأسيس أشياء أخرى قد نعرض لبعضها فيما يأتي .

---

*) و لذلك فهو يفسر نظرة الاسلام الى الاخلاق تفسيراً يتصل بالفقه الاسلامي اكثر من اتصاله بعلم الاخلاق ، و يعرف الخلق بانه عادة الارادة ؛ و ينقد الفلسفة القديمة التي تقول : يولد الطفل خلواً من الاخلاق ، ثم يكتسب اخلاقه بالتربية . و يرد عليها بأعمال الطفل حين يولد ، و يقول اشياء اخرى تتصل بهذا الرأي .

والخلق لا يمكن أن يكون وليد مصادفة، و نتيجة اتفاق، لأن الأخلاق ملكات، ولابد للملكات من أسس كما لابد للبناء من قاعدة، و أسس الخلق: الغريزة، و الوراثة، و البيئة، و التربية، والعادة. و الفلاسفة القدماء حين يقولون: «يولد الانسان صحيفة بيضاء يرسم فيها المربي ما يشاء» يريدون بذلك أن نفس الطفل مرنة الغرائز، سريعة التأثر والانطباع باشارات المربي و إرشاداته، لأن غرائز الطفل لا تزال بعد في جدتها، لم تسيره الى وجهة خاصة، ولم تكسبه خلقاً معيناً، فهي قابلة للتوجيه، و مستعدة للتهذيب، و اذن فهم يريدون من بياض صحيفة الطفل خلو نفسه من الملكات الخلقية، لاعريها عن الغرائز و الطبائع الموروثة، و المربي يكسبها أخلاقاً لا ينشىء فيها غرائز، و هم يقولون هذا فى الرد على من يقول: الانسان خيِّر بالطبع، و من يقول: هو شرِّير بالجبلّة.

ولنترك الاستاذ أحمد أمين يفسر قولهم هذا بما يشاء ليخطئهم في الرأي، و ليدل على خطأهم بأعمال الغريزة في الانسان حين يولد، لقد فسرعلى ما اشتهى، ثم أشكل على ما فسر.

أما قانون الوراثة الذي أشار اليه الاستاذ هنا، و الذي بنى عليه هدم هذه النظرية فلا يدل على أن الطفل يرث من أسلافه أخلاقاً، و كل ما يدل عليه أن الطفل يرث منهم مبادىء اخلاق، و استعداداً في غرائز، و الفلسفة القديمة لا تنكر ذلك، والشرع والأدب العربي القديم يعترفان بذلك أيضاً.

و تأثير هذه الاسس في تكوين الخلق الانساني ليس على نهج واحد، فان الغرائز تظهر على أشكال ميول و رغبات، و الوراثة تحوير في استعداد الغريزة، و أثر التربية أو البيئة توجيه النفس عند ارادة العمل، و أثر العادة تثبيت الصفة الحادثة و احالتها خلقا، و اذن فمبادئ الخلق تنحصر في صنفين:

(١) اختياري يفتقر وجوده الى ارادة الانسان و اختياره، و من هذا

القسم: العادة؛ و بعض مفردات التر بية، والبيئة، كالمدرسة والاصدقاء.

(٢) اضطراري لاحكومة لارادة الانسان على وجوده و ان كانت لها حكومة على تأثيره، و من هذا القسم: الغر يزة. و الوراثة، و البعض الآخر من مفردات البيئة والتر بية.

والامام الصادق (ع) يصرح بهذا التقسيم فيقول: (إن الخلق منحة يمنحها الله خلقه فمنه سجية، و منه نية) و يفسر لفظ السجية بالجبلة في بقية الحديث فيقول: (صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره؛ و صاحب النية يصبر على الطاعة تصبراً فهو افضلهما)[1] و يقابل السجية بالنية و هي الارادة.

و معنى الحديث ان الخلق الحسن منه ما تسوق اليه الجبلة، و تبعث اليه الفطرة، و هذا القسم لا يجد الانسان صعوبة في تكو ينه، ولا في الاستمرار عليه، و منه ما يكون على خلاف ميول الانسان و رغباته؛ و هذا القسم هو الذي يحتاج الى مجاهدة النفس في تكو ينه، و الى مصابرتها في الاستمرار عليه، فهو أفضل القسمين؛ و ارجحهما في الميزان.

و اذا وجهنا نظرة فاحصة نحو هذه الاسس رأينا للعادة خاصة لا تتمتع اخواتها الاخرى بنظيرها، للعادة ان تستقل في تكو ين اي خلق من اخلاق الانسان، و ليس للغريزة ولا للاسس الاخرى مثل هذا النفوذ و الاستقلال، لأن الخلق ملكة، و الملكة لا تتكون للنفس إلا بتكرار العمل[2] و نتيجة هذا ان جميع الاسس الاخرى محتاجة الى انضمام العادة اليها في تكو ين الخلق النفسي، و ان للعادة سلطاناً على تغيير كل خلق يتصف به

---

١) الكافي الحديث ١١ باب حسن الخلق.

٢) العادة مرونة تحصل للنفس من تكرار العمل حتى تألفه و يسهل عليها ان تأتي به من غير امعان فكر، و يشترط الاستاذ احمد امين في تكو ين العادة وجود ميل نفساني نحو العمل ينضم الى تكراره، و يقول: هما امران لابد منهما في تكون العادة، ولا يكفي احدهما عن الآخر، ولم يظهر لنا وجه مقبول لهذا الشرط الذي يشترطه الاستاذ.

الانسان، و ان للعقل سيطرة على تهذيب الغرائز، لان له سلطاناً على تحوير العادات.

والامام الصادق (ع) يقرر هذه النتيجة فيقول: (ما ضعف بدن عما قويت عليه النية) [1] تهذيب الغرائز النفسية جهاد، و في الخروج على مؤثرات البيئة و الوراثة عناء و صعوبة، و لكن جميع ذلك سهل على الارادة القوية، ولا خير في الرجل اذا لم يكن قوي الارادة.

و يقول ايضاً: (ان الله ارتضى لكم الاسلام ديناً فاحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق) [2] الاسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده اكراماً لهم و امتناناً عليهم، به ينجحون في الدنيا، و باتباعه يفلحون في الآخرة، فيجب عليهم ان يجاهدوا الخلق السيء من انفسهم، لان الاقامة على الأخلاق السيئة اساءة لا تلتئم مع قدسيّة الاسلام، هكذا يقول الامام الصادق في حديثه هذا، و اذن فهو يرى ان تهذيب الأخلاق ممكن و ان كان جهاداً، و على هذا النهج و بمثل هذه النغمة يقول: (من اساء خلقه عذب نفسه) [3].

سوء الخلق عذاب يختاره الانسان لنفسه اذا اساء خلقه، وهو جحيم يجب على العاقل ان يتخلص منه، هو عذاب لانه ضعة في النفس و خمود في العقل، و هو عذاب لانه نقص في الانسانية، و شذوذ عن التوازن، و هو عذاب يختاره الانسان لنفسه، لانه هو الذي يسعى في تكوينه، و الامام بقوله هذا يحاول أن يجعل من ارادة الانسان سلاحاً ماضياً لكفاح الرذائل و محاربة النقائص.

و من الخلقيين من يرى ان الاخلاق انطباعات نفسية يستحيل عليها التحوير و التهذيب، فليس للعقل عليها اية حكومة، و ليس للارادة على تغييرها اية قدرة، و هذه نظرية مجحفة تهدم بناء السياسات و تلغي فائدة

---

١) امالي الصدوق ص ١٩٨ ٢) الكافي الحديث ٤ باب المكارم ٣) امالي الصدوق ص ١٢٤.

التشـريع، و تبطل نظم الأخلاق و هذه النتائج وحدها كافية في ابطال هذا القول.

أما قول الامام الصادق في حديثه المتقدم: (صاحب السجية هو مجبول لايستطيع غيره) فلا يعني به أن من الاخلاق ما يستحيل عليه التهذيب؛ و انما يعني أن تكوين الخلق بسبب العادة فقط أكثر صعوبة على الانسان مما إذا تساعدت على انشائه الغريزة و العادة، فان الارادة إذا صادفت ميلا غريزياً أسرعت الى العمل، و بتكرار العمل تحصل العادة، و يتركز الخلق، و هما عند المكافحة و التهذيب على العكس من ذلك، لأن تغيير مجرى العادة أسهل بكثير من تعديل مجرى الغريزة.

و طالما سماه الصادقون من أهل البيت (ع) جهاداً و ما أحقه بهذه التسمية، لأن الثبات فيه يستدعي حزم المجاهد و للمناضل فيه أجر المجاهد، و قد قال أبوهم النبي (ص) لبعض سر اياه عند رجوعها من الحرب، (مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر و بقي عليهم الجهاد الاكبر[1]. ثم فسر لهم الجهاد الاكبر الذي بقي عليهم بجهاد النفس على أخلاقها، و قال الامام الصادق (ع): (و اجعل نفسك عدواً تجاهده)[2] و هو يريد بالنفس هنا ملكاتها الوضيعة.

و من أحق بالمجاهدة من هذا العدو المخادع، والخصم الألد، الذي يحمل سلاح الغدر تحت ستار النصيحة، و يمزج السم القاتل بحلاوة الأمل، هي عدو داخلي يجب اخضاعه بقوة العدل لحكومة العقل.

---

١) الوسائل كتاب الجهاد الحديث الأول من باب وجوب جهاد النفس.

٢) أصول الكافي الحديث ٧ من باب نوادر الاستدارج.

(٢)

السعادة والخير

«السعادة سبب خير يتمسك به»
«السعيد فيجره الى النجاة»
الامام الصادق(ع)

(٢)
السعادة و الخير

يستطيع الكائن الحي[١] أن يصدر من الاعمال ما يعاكس بها نظام الجذب العام، والجماد و النبات لا يقدران على ذلك، يستطيع الحيوان أن يتسلق الجبل مثلا، و أن يتنقل حيث تقوده الرغبات و تسوقه المطامع.و ماء البحر لا يستطيع ذلكمن نفسه، ولا يفعله إلا حين يكون مقسوراً، و هذا يدلنا على أن للكائن الحي قوة نفسية تميزه بهذه الخاصة عن جميع ما يشاركه في الوجود، و هذه القوة النفسية هي الارادة، و قديماً عرف المنطقيون الكائن الحي بأنه «المتحرك بالارادة».

و هذه القوة النفسية «الارادة» واحدة في العدد، و نسبتها الى جميع الاعمال التي يصدرها الحيوان نسبة متساو ية، و لذلكفكان من المستحيل على الارادة أن تتوجه الى نقطة معينة من الاعمال اذا لم تعينهانفس ذلك

---

١) نريد بالكائن الحي هنا الحيوان في عرف المنطقيين القدماء فلا يعم الأحياء السفلى كالمكروب والنبات، وإن أثبت العلم الحديث أنها كائنات حية.

الموجود الحي ، و نتيجة جميع ما تقدم أن للحيوان ارادة تصدرعنها أعماله و تصرفاته ، و أن لهذه الارادة أغراضاً توجهها الى ما تعمل و الى ما تترك ، و بهذا يشترك الانسان مع جميع أفراد الحيوان.

و ينفرد الانسان عنها بأن أغراضه مسبوقة بالتعقل و التدبر، فهو الذي يستطيع أن يعلل و يتفكر، و يقارن بين الأشياء و أضدادها ، و يقيس المستقبل بالحاضر فيختار الجيد من الأمور، و المثلى من الغايات ، أما الحيوان فيسوقه الوهم الى اتباع الغريزة فيما تأمر و ما تحذر، و ليس له وراء الغريزة و الوهم قائد ولا سائق.

توجه الطبيعة غرائز الحيوان و ميوله ، فتتبعها ارادته تنفذما تأمر، و ليس له اختيار كامل يمكنه أن يستقل به عن أحكام الطبيعة و ميول الغريزة ، والانسان وحده هو الذي يستطيع ذلك، فهو الذي يصدر أحكامه على الغريزة ، و يغير أحكام الطبيعة ، و يصنع العجائب بارادته و اختياره.

و للانسان نزعة نفسية ثابتة ، و هي حب الجودة ، فهو يتكلف الجيد من الاعمال و يتحرى الجيد من الغايات ، و هو يحاول أن يكون سابقاً في أعماله ، و أن يكون جميلا في كل مظهر من مظاهره ، ثم هو يحب المدح و يلتذ لسماعه ، و هذا يدلنا على ان الغاية الاولى للانسان هي الكمال المطلق ، و ان الجودة التي يتمناها لصفاته ، و يتوجه اليها في جميع أعماله إنما هي مظهر من مظاهر هذا الكمال الذي تنتهي اليه جميع غاياته ، و ترتبط به جميع مقاصده ، و اذا علمنا أن علم الاخلاق يبحث في صفات الانسان ، و أعماله و في كيفية تهذيبها ، و ارجاعها الى التوازن فقد اتضح لنا أن غاية علم الأخلاق هي إيصال الانسان الى الكمال المطلق في أخلاقه و اعماله ، و اذا كان هذا بنفسه تعريف السعادة على ما يقوله بعض الفلاسفة المقدمين كانت النتيجة ان غاية علم الاخلاق هي السعادة للانسان.

«سعادة كل كائن حصوله على كماله الذى قد تهيأ له» بهذا

يحددون معنى السعادة ثم يقولون في تعليله : ان الوجود على الاطلاق خير، و اذا كـان الخير مما يقـبـل التفاضل بين افراده، كان كمال ذلك الوجود خير ذلك الخير، و اذن فـالكمـال المطلق الذي يتوجه اليه الانسان في اعماله و صفاته هو «الخير الأعلى»، و هـذا هـو تـعـريف السعادة عند ارسطو فالتعريفان يشيران الى معنى واحد، على ان بين السعادة و الخير فرقاً من وجهة اخرى .

و يـرى قوم من الفلاسفة : ان الغاية الاولى للانسان من جميع اعماله هي اللذة[1] و قد اخذت هذه النظرية دوراً مهماً بين الفلاسفة المحدثين، و من اهم ما يؤخذ عليها من وجوه النقد .

(١) ان الـغـاية هي النتيجة التي يهدف اليها العامل و يوصل اليها الـعـمـل، و لـذلـك فـيـجب ان تـكون متأخرة عن العمل في الوجود، و اللذة تـصـاحـب العمل في اكثر الأحيان و تنتهي بانتهائه، فلا يمكن ان تعتبر غاية له .

فمن يتقدم للدفاع عن وطنه، او للجهاد عن دينه، يجد لعمله هذا لذة حين هـو يـدافع او يجاهد، و لكن هذه اللذة ليست غايته من جهاده او دفاعه لانها تقارنهما في الوجود، و غاية الشيء لا تقارنه، ثم هو قد يقتل، و قد يحول دون فـوزه في الجـهـاد حـائـل فـلا تستمر اللذة الى ما بعد العمل فكيف تكون غـايـة لـه، و في كـثير مـن الاشـيـاء تـكـون اللـذة حين الـعمل اشد منها بعد انتهائه .

(٢) وان الانسان قد يصدر اَعمالا بدافع من غريزته قبل ان يعلم ان هذه الاعمال سارة اومؤلمة، و اللذة و الألم شعوران لا يحصلان للنفس إلا بعد الاختيار و التجربة .

---

١) اللـذة شـعور نفسي خاص يحصل للانسان عند ارضاء رغبة من رغباته، و هي تكون على قسمين عقـلية و جسدية، فارضاء رغبات العقل لذات عقلية، و ارضاء رغبات الجسد لذات جسدية، و يقابلها الالم في جميع ذلك .

فالطفل حين يرتضع ثدي امه لاول مرة، وهو حين يبكى اذا تأخر عنه الرضاع لاول مرة انما يعمل ذلكبدافع من غريزته الى الرضاع او الى البكاء، لا لأنه يجد لذة في الرضاع او يحس بألم في الحرمان، لانه لم يختبر ذلك بعد.

على ان الانصاف يقتضينا ان نعتدل في الحكم على هذه النظرية بالصحة او بالفساد، فهي ليست بمطلقها صحيحة لما قدمناه من الأدلة ولما لم نذكره منها حذراً من الاطالة، و هي ليست بمطلقها فاسدة، لأننا نجد الانسان يصدر بعض اعماله لمجرد اللذة ولا يتطلب منها غاية اخرى.

و اذن فالفعل الذي يعمله الانسان بارادته و اختياره يكون على قسمين:

(١) اخلاقي: و هو الذي يكون مظهراً للخلق الصحيح و الذي يكون صدوره باشارة العقل و ارشاده، و هذا هو الذي يجب ان تكون غايته هي الكمال الانساني المطلق، و اذا اعقبت هذا النوع من العمل لذة فهي شيء آخر يصحب الغاية؛ يتقدم عليها او يقارنها في الوجود.

(٢) غير اخلاقي: و هو الذي لايعد كذلك، و في هذا الصنف من العمل الاختياري قد تكون الغاية هي اللذة، و قد تكون الغاية هي الكمال، و قد تكون شيئاً يتوهمه الفاعل كمالا.

و سواء ثبت ان اللذة بمطلقها خير ام لم يثبت، فلا يسعنا التصديق بان السعادة هي اللذة مادامت السعادة هي الخير الأعلى و كان اكثر اللذات مصحوباً بالالم.

لبعض الفلاسفة ان يجعل الغاية من جميع الاعمال هي اللذة، و لهم ان يختلفوا في تعيين هذه اللذة و توصيفها ، و للاستاذ احمد امين ان يفسر معنى السعادة «باللذة و الخلو من الالم» اذا احب ان يختار هذا التفسير على ان يكون ذلك رأياً خاصاً له في معناها، و لكن ليس له ان يجعل ذلك تفسيراً

للسعادة عند جميع الفلاسفة.

نحن لا ننكر ان من الفلاسفة من يوافق الاستاذ على هذا التفسير، و لكننا ننكر عليه ان يجعله رأياً للجميع فيقول: «و يعنون بالسعادة اللذة والخلو من الالم».

السعادة هي الخير الأعلى، بهذا تعرفها الخاصة، و هذا ما تفهمه العامة من معناها أيضاً، و اذا تجدد بين الفريقين اختلاف بعد ذلك فانما هو في تعيين أفراد الخير الأعلى، فان الخاصة تعرف من الخير الأعلى مثالية سامية، لا تدركها عقول العامة، و للعامة في تحديده رأي قصير لا تذعن له الخاصة.

تدرك العامة من الخير الأعلى معنى بسيطاً تحدده لها أنظار بسيطة، فترى أن السعادة هى الثروة، و الصحة، و الرفاه، لأنها لا تعرف من الخير الأعلى غير هذا و ما يشبهه، والخاصة لا ترى في ذلك ما يسمى كمالا، ولا تعد الحصول عليه سعادة، إلا اذا كان للسعادة معنى آخر[١].

و كمال النفس عند هؤلاء ارتقاؤها الى المراتب العقلية الرفيعة، و استيفاء حظها من الانسانية الكاملة و بين هاتين الطائفتين طبقات متوسطة تعرف من الكمال و من الخير الأعلى غير ما يعرفه هؤلاء جميعاً فتكون السعادة عندهم شيئاً آخر.

أما الامام الصادق (ع) فيقول: «دعامة الانسان العقل ـ و بالعقل يكمل»[٢] و يقول: «اليقين يوصل العبد الى كل حال سني و مقام عجيب»[٣] و يقول «إن الايمان أفضل من الاسلام و ان اليقين افضل من الايمان، و ما

---

١) قد يطلقون اسم السعادة على ما يوصل الى الخير الاعلى و للتفرقة بين المعنيين يسمون هذه بالسعادة المضافة على حد قولهم بالخير المضاف.

٢) اصول الكافي الحديث ٢٣ باب العقل والجهل.

«٣» جامع السعادات ص ٧١.

من شيء أعز من اليقين» [١] و يقول «إن اللّه بعدله و قسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا و جعل الهم والحزن في الشك و السخط» [٢].

وهذا الرأي هو الذي يقرره المثاليون من الفلاسفة فهم يقولون: الكمال رقي النفس في مراتبها العقلية، والامام يقول (الروح والراحة في اليقين) واليقين أعلى مراتب الحكمة والانسانية الكاملة التي يقولون بها هي الايمان الكامل الذي جعله أفضل من الاسلام و من مطلق الايمان و لعلك تلمس من لفظ الروح في قوله؛ معنى اللذة في قولهم؛ لأنه يقابله بالهم والحزن و إذن فالكمال في الرأيين بمعنى واحد و حصول ذلك الكمال للانسان هو الخير الأعلى أو السعادة. و قد يكون هذا هو معنى النجاة في قوله (السعادة سبب خير يتمسك به السعيد فيجره الى النجاة) [٣] و إذا أردت ما هو اكثر صراحة في ذلك فهو يقول (اذا منّ اللّه على العبد جمع له الرغبة في المعروف و القدرة و الاذن فهنالك تمت السعادة و الكرامة) [٤].

للايمان في رأي الامام الصادق طرفان: اعتقاد و عمل. و مرتبة اليقين هذه تأخذ بالاعتقاد الى حد الكمال و تبسط على العمل فضيلة التوازن و بذلك يحصل الايمان الكامل الذي هو أفضل من الاسلام و من مطلق الايمان، و تتم السعادة والكرامة.

و يقول الامام أيضاً (لا ينبغي لمن لم يكن عالماً أن يعد سعيداً) [٥] و كيف ينال السعادة من حرم كمال العلم، و كيف تحصل الانسانية الكاملة لمن يقوده الجهل.

---

١) اصول الكافي الحديث الأول باب فضل الايمان على الاسلام.

٢) اصول الكافي الحديث ٣ باب فضل اليقين.

٣) احتجاج الطبرسي ص ١٩١، أما لفظ السعادة في الحديث فهي السعادة المضافة لأنه يقول: هي سبب خير.

٤، ٥ تحف العقول ص ٨٩

الخير

علمنا ان كل تصرف يصدره الانسان باختياره فهو مسبوق بالتفكير في نتائجه و بالموازنة بين الجهات المرجحة لفعله و لتركه. واذن فهنا أشياء نشتاق اليها في نفوسنا و نتوسل الى تحصيلها بأعمالنا و نعد الفعل الذي يوصلنا اليها راجحاً. و هنا أشياء أخرى ننفر منها بمقتضى طباعنا و نجتنب العمل الذي يؤدي بنا اليها و نعده مرجوحا. و قد أطلق الخلقيون على الاشياء الاولى كلمة الخير وعلى الأشياء الثانية كلمة الشر و هم يحكمون على العمل بأنه خير أو شر بملاحظة ما ينتجه من الجهات المذكورة، و إن اختلفوا في موازين الخير و الشر و المقاييس التي تقاس بها الأشياء ليعلم أنها خير أو شر و قد يوجهنا البحث الى هذه الناحية فيما يأتي:

(الخير هو موضوع جميع الآمال) هكذا يقول أرسطو في تعريف الخير[1]. و يقول فيلسوف آخر «الخير ما يتشوقه الجميع» و يقول ثالث «هو ما يقصده الجميع في أعمالهم» و بين هذه التعاريف فروق واضحة إلا أنها تجتمع على الجهة التي ذكرناها.

و لفظ الخير عند الخلقيين القدماء يحكي معنيين متناسبين و للتفرقة بينهما يصفون أحدهما بالخير المطلق و الثاني بالخير المضاف، و التعاريف المتقدمة تحدد الخير بمعناه الاول.

و الخير المضاف هو كل وسيلة توصلنا الى الخير المطلق والفارق بينهما هو الفارق بين الوسيلة والغاية، أو بين الغرض الأدنى والغرض الأقصى.

---

١) كتاب علم الاخلاق لـ «نيقوماخوس» تعريب الاستاذ احمد لطفي السيد بك ص ١٦٨ من الجزء الاول.

قد توصلنا الغاية الى غاية اخرى اسمى منها فتكون الغاية الاولى خيراً مضافاً لأنها اوصلتنا الى الخير المطلق ولنا ان نعتبرها خيراً مطلقاً أيضاً لأنها غاية بعثنا اليها الشوق و توسلنا الى حصولها بالعمل.

والامام الصادق (ع) يذكر المعنى الاول من الخير فيقول: «جعل الخير كله في بيت، و جعل مفتاحه الزهد في الدنيا[1] و يقول «السعادة سبب خير يتمسك به السعيد فيجره الى النجاة»[2].

و يذكر المعنى الثاني فيقول «اذا أردت شيئاً من الخير فلا تؤخره»[3] و يقول: «افتتحوا نهاركم بخير، واملوا على حفظتكم في أوله خيراً و في آخره خيراً[4] و يقول: «أحسن من الصدق قائله و خير من الخير فاعله»[5]

---

١) اصول الكافي الحديث ٣ باب الزهد ٢) احتجاج الطبرسي ص ١٩١ ٣) أمالي الصدوق ص ٢٢٠ ٤) اصول الكافي الحديث ٣ باب تعجيل الخير ٥) الجزء ١٥ من البحار باب الصدق و لزوم أداء الامانة.

(٣)

الاعتدال والانحراف

«ومن كان عاقلا كان له دين»
«ومن كان له دين دخل الجنة»
الامام الصادق(ع)

(٣)
الاعتدال و الانحراف

الغرائز قوى فطرية تسوق ارادة الحيوان الى العمل، و تظهر في الانسان على أشكال ميول و رغبات، و لذلك فالخلق النفسي مدين في وجوده للغريزة قبل أن يكون مديناً للعادة (لأن الغريزة هي الدافع الأول الى ايجاد العمل. و العادة هي الدافع الثاني الى تكراره) و الغريزة تبذر الخلق في النفس لتنمية العادة، و الغريزة تعين الغاية التي تتوجه اليها الارادة ثم تتبعها العادة و يتكون الخلق.

و من الواضح أن الناس مختلفون في اتباع ميول الغريزة فان بعضهم يتبعها بأعماله الى حد الافراط، و بعضهم يتجافى عنها الى حد التفريط، فاذا تكرر العمل من هؤلاء و هؤلاء نشأت لهم عادات منحرفة و اكسبتهم العادات اخلاقا غير مستقيمة.

و فريق من الناس يعتدلون في اتباع هذه الميول فتنشأ لهم العادات المعتدلة، و يكتسبون منها الاخلاق السوية. و من البين ايضا أن هذه الغرائز لم تجعل في الانسان ليتبعها في كل ماتأمر و تنهى، ولو كان الامر كذلك لم

يرتفع الانسان عن درجة الحيوان،ولا ليزهد فيها كما يزهد في الشيء التافه؛ لانها اودعت فيه لضرورات يقتضيها بقاؤه و بقاء نوعه ، و اذن فالاعمال التي يتجاوز بها الناس حد الاستواء أعمال غيرصالحة ، والاخلاق التي يكتسبونها من تكرار هذه الاعمال أخلاق غير صحيحة ، و اذن فأمراض الاخلاق انحرافات ،وصحتها استقامة و توازن ، و بعد الخلق الفاسدعن الصحة بمقدار انحرافه عن التوازن العادل .

و يرى القدماء من علماء الاخلاق أن للانسان قوى أربعاً ، يسمونها بالصورة الباطنة للانسان على قياس الصورة الظاهرة و هذه القوى هي قوة العقل ، و قوة العمل، و قوة الشهرة ، و قوة الغضب . و يقولون : إن هذه القوى هي أصول الاخلاق عليها تفرع ، و اليها تنتسب فباعتدال كل واحدة من هذه القوى تحصل احدى الفضائل الاربع التى يسمونها أمهات الفضائل او الفضائل الرئيسية،و يقابل كل واحدة من هذه الفضائل رذيلتان تنشئان من انحراف القوة الى طرف الافراط ، أو الى حد التفريط.ولا يحصل هذا الشذوذ الا اذا ضعفت سيطرة العقل على القوى و قصر نفوذه عن ادارة الحكم .

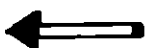
يشذ بعض القوى حينذاك و يثور به الطمع و لكنه لا يستطيع أن يصل الى غايته الا اذا استخدم قوة العمل ؛ و هو بعد جاهل باسباب النجاح ؛ فهو محتاج الى مرشد يمهد له الطريق و يرفع دون غايته الحواجز.و قوة العقل لا تمدّيداً لمساعدة ظالم ولا تعين مستأثراًعلى بلوغ اهدافه مهما بلغ بها الضعف ؛ و مهما بلغت بذلك المستأثر القوة.الا ان يعود العقل حمقاً، و ينقلب العلم جهلا .

و اذن فليس لتلك القوة المتطرفة غير قوة الوهم التي تخلق الحيل و تستنبط الاعذار[٢] فتستعين بها على اخضاع قوة العمل و يتم لها ما تريد .

---

١) يقول المتقدمون من الحكماء «للانسان في ادراكاته الجزئية قوى ثلاث :

٢ـ الواهمة و هي التي يتصور بها المعاني الجزئية . ٢ـ الخيال و هى التى يدرك بها صور الاشياء



اما العقل فهو يرصد هذه الفوضى بعين الناقد النزيه.يحفزه رشده على الوثبة ، ويقعد به ضعفه عن الاصطدام بقوة لا قبل له بها ؛ ثم يلجئُهُ الموقف الى السكوت ؛ ولابد للضعيف ان يخفت صوته امام القوة فتشذ الاخلاق ثم تشذ و تسقط النفس في صفاتها ثم تسقط وتذهب في سقوطها الى حد بعيد.

و لضعف القوى أثر في جفاء الاخلاق ؛ و سقوط الملكات لا يقل خطراً عن أثر الافراط في القوة.

يقف بالضعيف شعوره بالنقص ، و يقعد به عن بلوغ حظه من الكمال.و ليت الضعف يقف به عند هذا الحد ، و لكن الانصاف غير منتظر من عدو غادر، سيتناهى به الى ابعد حد ، ويستولي عليه الشعور بالنقص حتى تأنس به نفسه ، و حتى تتوهم ان لها من الضعف قوة ، و من النقص كمالاً و تنطبع الحالة فيها ملكات.

و قد يحصل التوازن العادل في القوى فيتولد منه الاعتدال في الاخلاق و العدالة في النفس ، و انما يتكون هذا التوازن اذا عمت سلطة العقل على الغرائز، و اذعنت لحكمه جامحات القوى ، فيتسلم زمام التدبير، و يستقل بادارة الحكم . و للعقل في تدبير هذه المملكة الصغيرة أنظمة قد يخطئها مدير مملكة واسعة.و ليس للعقل وراء هذه القوى و الغرائز جنود اخرى يخضع بها الجائر و يهدىء بها الثائر، و لكنه بحكمته يضرب بعض القوى ببعض ، فيضع الشهوة بالغضب و يكسر الغضب بالشهوة و يستعين على ذلك بنواميس الشرع و تقاليد العرف .



الخاصة ٣ـ المتخيلة : و هي التي يؤلف بها بين صور الخيال و معاني الواهمة .

و قوة الوهم هي مزيج من هذه القوى الثلاث و فائدتها وراء هذه الادراكات انشاء الحيل و تمهيد الطرق للحصول على الغايات الخاصة من غير فرق بين الغايات الصحيحة و غيرها ؛ و لذلك فهي في سلوكها خاضعة لقانون التوازن والانحراف ايضا ».

تسكن الفوضى و ينقاد الصعب و يتقوى الضعيف و يتماثل المريض بفضل الحكمة والارشاد و بتدبير الحاكم المصلح، و يعم التوازن العادل بين الحاكم و أفراد الرعية فلا طمع ولا استئثار.

هذه هي الحكومة المثالية و العادلة، و العدالة الخلقية باسمى معانيها و الفضيلة الكبرى التي ترسم للانسان طرق الفضائل الفرعية، و ذلك هو الدين الذي يقول عنه الامام الصادق (ع): «من كان عاقلا كان له دين و من كان له دين دخل الجنة»[1] اجل من كان عاقلا كان له دين، و هل الدين غير التوازن في الاخلاق، والاعمال و العقائد؟ و هل العقل الا رائد الخير و دليل السعادة؟

و يقول في كلمة اخرى: (اكمل الناس عقلا احسنهم خلقاً)[2] و في كلمة ثالثة: (العقل دليل المؤمن)[3] على ان الامام الصادق (ع) يجري في تقسيم الاخلاق مجرى آخر. فيرى ان الفضيلة الكبرى هي العقل، و ان جميع الفضائل الاخرى متفرعة منه يسقيها من ينبوعه و يمدها من حكمته، و ان الرذيلة الاولى هي الجهل، و بقية الرذائل فروع منه و لذلك فهو يقول في حديث طويل: (اعرفوا العقل و جنده و الجهل و جنده تهتدوا)[4] ثم يعد الاخلاق السامية في جنود العقل، والصفات الوضيعة في جنود الجهل.

و هو يريد من العقل الكامل الذي لم تخف به كفة التوازن الى حد التفريط، ولم تتعد به الى حد الافراط. و هو الذي يقول عنه في الحديث المتقدم: (من كان عاقلا كان له دين)، و في حديث سيأتي: (و هو ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان)[5] و يريد من الجهل ما يقابل هذا العقل المتوازن.

---

١) الكافي الحديث ٦ كتاب العقل والجهل ٢) الحديث ٧ من المصدر المذكور ٣) الحديث ٣٤ من المصدر.

٤) اصول الكافي الحديث ١٤ كتاب العقل والجهل.

٥) الحديث ٣ من المصدر المتقدم.

و هـذا المسلك شبيه بمسلك (سقراط) في تقسيم الاخلاق وهو أبعد منه عن النقد، و اكثر موافقة للبرهان.

يقول سقراط : الفضيلة الاولى هي العلم، والرذيلة الاولى هي الجهل.و لذلك فقد كان رأيه هذا موضعاً للنقد :لأننا نجد ان بعض الناس يرتكب الاخطاء الخلقية و هو عالم بشناعة ما يرتكب فلم يسقه علمه الى الفضيلة،ولم يردعه عن ارتكاب الرذيلة.

اما الامام فيقول : ان الفضيلة الكبرى هي العقل، و من البين ان الانسان انما يرتكب الاخطاء الخلقية اذا ضعفت موازنته بين الغايات أو شذ به بعض الاخلاق عن التوازن.و هذا لا يكون إلا حين ينحرف العقل عن الاستقامة او يضعف عن الحكومة.

و اما النقد الذي يوجهه (ارسطو) لنظرية (سقراط) هذه حين يقول : (ان سقراط جهل او تناسى ان نفس الانسان ليست مركبة من العقل وحده و تخيل ان كل اعمال الانسان خاضعة لحكم العقل و من ثم اذا علم العقل فضل العمل،و لكنه نسي ان اكثر أعماله محكومة بالعواطف والشهوات، اذ ذاك قد يقع في الخطأ مهما علم العقل).

أقول اما هذا النقد فلا يتوجه الى مسلك التقسيم الذي نقلناه عن الامام الصادق (ع) لانه لا يقول ان نفس الانسان مركبة من العقل وحده و لكنه يقول: للعقل المستقيم سيطرة واسعة يخضع بها العواطف اذا ثارت،و يقود بها الشهوات اذا جمحت و يوازن بها بين القوى اذا تضاربت. و لذلك فالاخلاق المستقيمة مدينة في وجودها للعقل المستقيم،و هي جنود مدربة تناصره على اصلاح الملكات الاخرى.

(اعرفوا العقل و جنده والجهل و جنده تهتدوا)، هذا عنوان لحديث اخلاقي طويل، له روعته وله جماله؛ يمليه الامام الصادق على اصحابه ليهتدوا.

يعرض الامام في حديثه هذا صفين مستطيلين من الاخلاق يتقابلان كما تتقابل الجيوش المتحاربة.فهما متناقضان في المبادىء و متزاحمان في المقاصد؛ وهما متماثلان في القوة؛ ومتكافئان في العدد؛ يقف كل واحد منهما لصاحبه بالمرصاد؛ فالصف بازاء الصف، والفرد يقابل الفرد، والهدف يعارض الهدف.

حرب سجال؛ و معارك دامية؛ و للنفس من ذلك موقف الحائر الوجل المتطلع الى غاية مجهولة بين عدو ين عنيدين لا يخضعان لصلح ولا يرغبان في سلم.يريد كل واحد منهما الاستيلاء عليها والاستقلال في حكومتها.

هي حرب اهلية متكافئة القوى؛ متماثلة العدد، ومصير النفس موقوف على ظهور الظاهر و ظفر الظافر؛ تنتظم الاخلاق الفاضلة في الصف اليمين منهما و تقابلها رذائل الملكات الى اليسار و يشاء البيان الغني للامام (ع) ان يسمي اهل اليمين جنود العقل؛ و هو تشبيه رائع؛ و نكتة نادرة.

الاخلاق الفاضلة جنود؛ لانها تطارد الاخلاق الذميمة لتخلص النفس من سيطرتها و نفوذها؛ وهي جنود العقل لانها تنضوي تحت لواء العدل الذي ترفعه حكمة العقل، وهي جنود العقل لان العقل هو المنظم الاول لصفوفهاو الباعث الاول لروح التعاون بين افرادها.

يعد الامام لنا في حديثه هذا خمسة و سبعين جندياً من انصار العقل يقابلها مثلها من جنود الجهل ثم يقف.

ولم ينته به التعداد لانتهاء جنود العقل بذلك ؛ ولكنه يذكر الافراد البارزة من قادة الجيش؛ و ذوي الشارات الواضحة من امراء الجنود.

و على هذا الغرار و بمثل هذه الاستعارة الجميلة يقول في صفة المؤمن في حديث آخر: (والعقل امير جنده)[١].

---

١) اصول الكافي الحديث الاول من الباب الثاني من نسبة الاسلام.

(٤)

الانسانية الكاملة

«دعامة الانسان العقل- وبالعقل يكمل»
«وهو دليله ومبصره ومفتاح امره»

الامام الصادق(ع)

(٤)
الانسانية الكاملة

فضائل الملكات اوساط ؛ و رذائلها اطراف و انحرافات. هكذا يقول (ارسطو) و هكذا تقول مثالية الشرع المقدس و الخلقيون من فلاسفة الاسلام.

و الفلاسفة من المحدثين يأخذون على هذه النظرية امورا ويوجهون اليها نقودا اهمها مايلى :

النقد الاول: ان معرفة الاوساط الحقيقية تحتاج الى مقياس عام تقاس به الملكات و القوى و تعرف به نسبة الاوساط الى الاطراف على ان يكون هذا المقياس مضبوطاً يستحيل عليه ان يتخلف و ان ينتقض ؛ ولا يوجد عندنا مثل هذا المقياس العام. و جوابه : ان المقياس العام الذي تعرف به النسبة هي الانظمة العامة التى يقررها العقلاء فيما بينهم و التى تفرهم عليها الشريعة الإلهية المعصومة ؛ اما الذين لايعترفون بالشريعة ولا يذعنون لقوانينها ؛ فالمقاييس عندهم تختلف باختلاف التقاليد والعادات وهذا احد الجهالات التى تشهد باحتياج الناس الى الدين.

النقد الثاني: ان من الاخلاق مايسميه العقل فضيلة و يعد السلوك فيه سلوكا متوازناً وهو ليس من الاوساط كالصدق فان ضده هو الكذب وليس له طرف آخر؛ وكالعدل فانه يقابل الظلم فقط والاشياء لا تكون اوساطاً الا اذا كان لها طرفان تنسب اليها.

و جوابه: اننا نريد من الاوساط ما يقابل الافراط في القوى او التفريط فيها و لذلك فان فروع القوة المعتدلة تعد من الفضائل و ان كانت اطرافا و فروع القوة المنحرفة تحسب من الرذائل و ان كانت اوساطا؛ و ملكة الصدق فرع من العفة او من الشجاعة و هما قوتان معتدلتان.

اما العدل فقد نعني به ضبط قوة العمل و وضعها تحت ارشاد العقل، و قوة العدل هذه ليست ملكة خاصة الا انها تعم جميع الملكات النفسية المعتدلة والظلم الذي يقابلها هو ارخاء العنان لقوة العمل في كل ما تريد و هو يعم كل ملكة منحرفة. اذن فهو معنى عام شامل و ليس ملكة معينة لتقاس اليها ملكات العدل.

و قد نعني بالعدل الانصاف واعطاء الحقوق لأهلها كاملة غير منقوصة وهو بمعناه هذا فرع من فروع العفة او الشجاعة و يقابله من جانب الافراط؛ التعدي على حقوق الناس و في جانب التفريط؛ اهمال الحقوق المحترمة للنفس. و يحاول الاستاذ محمد احمد جاد المولى (*) ان يجعل الصدق وسطا بين الكذب و المبالغة و هو تكلف في الجواب لان المبالغة نوع من الكذب.

النقد الثالث: ان الفضائل الخلقية في الاكثر لا تكون اوساطاً لان الوسط الحقيقي هو المنتصف والفضائل الخلقية منها ما يقرب من الافراط فان فضيلة الكرم قريبة من السرف و فضيلة الشجاعة قريبة من التهور ومن الفضائل ما يقرب من التفريط كالحلم والتواضع فانهما قريبان من الجبن

واضاعة الحقوق .

و جوابه : ان الوسط ليس نقطة معينة بنسب بعدها الى الطرفين على السواء لنحكم عليه بأنه المنتصف ، و لذلك فانا نحكم على الفضائل بالشدة والضعف ؛ والضعيف منها نعده فضيلة و ان كان ضعيفا لانه معتدل ؛ و نتيجة هذا ان الكرم اذا نسبنا ارقى مراتبه الى الاسراف و التبذير ثم نسبنا ادنى مراتبه الى البخل لم نجد احد البعدين أكثر من الآخر و مثله الشجاعة اذا اضفناها الى الجبن والتهور.

النقد الرابع : اذا كان الميزان في عدّ الخلق فضيلة هو التوسط ، وجب ان يكون التوسط في الفضيلة أسمى منزلة عند علماء الأخلاق من الترقي فيها ، لأن التوسط فيها أقرب الى الاعتدال الصحيح و أبعد من طرفى الانحراف و هذه النتيجة لايرتضيها علماء الأخلاق .

و جوابه : ان الوسط مجموعة نقاط معينة ننسبها الى الطرفين بنسبة واحدة و معنى هذا ان جميع هذه النقاط توسط في القوة و اعتدال فيها و يكون ارتفاع النفس فى هذه المراتب رقياً فى درجات الكمال .

و قد تبسطنا فى التحدث عن هذه النظرية لأنها قد اخذت دوراً مهما من الجرح والتعديل عند الخلقيين ولأنها هي النظرية السديدة التى يحكم بها العقل و يقرها الشرع .

والامام الصادق (ع) يذكرها فيقول : (و اعلم ان لكل شيء حداً . فان جاوزه كان سرفاً ، و ان قصر عنه كان عجزاً[1]) .

الاعتدال فى قوة الغضب شجاعة والتطرف فيها جبن أوتهور، والتوازن فى قوة الشهوة عفة ، والانحراف فيها شراهة أو خمود ، و لكل من هذه الملكات فروع كثيرة .

و ليس الحكم بالانحراف والاستقامة مختصاً بالشهوة والغضب بل

١) مستدرك الوسائل الجزء الثاني ص ٣٦٠

هو حكم عام لجميع القوى و نظام شامل لجميع الاشياء على ما يقوله الحديث المتقدم و إذا كان للانسان جهة تميزه فلانه الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يرسم لنفسه طريق التوازن، و أن يصل بعمله الى السعادة والخير الأعلى.

والعقل نفسه أحد الخاضعين لهذا الحكم، فانه أطوع من يذعن للحق، و أساس من ينقاد للنظام العادل.

فقد تخف بالعقل كفة التوازن فيكون حمقاً، و قد يتجاوز الاستقامة فيكون خداعاً أو حكمة باطلة، وكلا. الطرفين شذوذ عقلي ورذيلة خلقية، و قد يتوازن فيكون حكمة و دليلا على الخير والهدى.

و يقول الامام الصادق (ع) في صفة العقل المستقيم، هو (ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان)[1] و يقول أيضاً (العقل دليل الأمن)[2] أما الحكمة الباطلة فانه يسميها بالشيطنة النكراء حين يسأله بعض أصحابه عن عقل معاوية فيقول (ع): (تلك النكراء تلك الشيطنة و هي شبيهة بالعقل[3] و ان الحكمة الباطلة شيطنة نكراء، لانها خداع يشبه الحكمة، و باطل يشبه الحق، و هي نكراء لانها تعاند الفضيلة المحبوبة).

ثم هو يقول فى الرذيلة الثانية: (ما خلق اللّه شيئاً أبغض اليه من الاحمق لأنه سلبه أحب الاشياء اليه و هو العقل[4]).

و يقول ايضاً: (لا يفلح من لا يعقل [5]).

أما قوة العمل فهى الخاضع الأول لارشاد العقل و باستقامتها يحصل التوازن العام لجميع الملكات لأنا قد علمنا ان ايجاد الأعمال من

---

١) اصول الكافي الحديث الثالث من كتاب العقل والجهل.
٢) الحديث ٣٤ من المصدر المذكور.
٣) اصول الكافي الحديث الثالث من كتاب العقل والجهل.
٤) علل الشرائع للصدوق ص ٤٥.
٥) الكافي الحديث ٢٩ من كتاب العقل والجهل.

مختصات هذه القوة، و ليس في استطاعة القوى الأخرى أن تصل الى غاياتها اذا لم تعنها قوة العمل.

فاذا خضعت هذه القوة لحكم العقل و اتبعت رشده و هداه كانت أرفع من أن يؤثر فيها خداع الوهم، أو تغمرها صولة الغضب، أو تأسرها لذاذة الشهوة لان الذي يتبع العقل لا يحفل بالأوهام والأحلام.

ستندحر أمامها قوة الغضب، و سلطان الشهوة و يستمر الاندحار عليهما فى كل معركة، و يتصل الانهزام في كل نضال و سيخضعان راغمين لحكومة العقل، و يذعنان لقوة العدل. فالتوازن في جميع ملكات النفس نتيجة للتوازن العادل فى قوة العمل، والانحراف فى تلك نتيجة التطرف فى هذه و ليس لقوة العمل ملكة خلقية خاصة تنفردبها، الا أن الأخلاق الفرعية لجميع القوى انما تتكون بمعونتها، و إرادة الانسان هي المحرك لهذه القوة فان من الاعمال ما يصدره الانسان مقسوراً عليه كالتنفس و ضربات القلب، و من الاعمال ما يصدره بارادته و اختياره، و قد علمنا أن هذا الأخير هو العمل الذي نحكم عليه بالخير أو الشر، و هو السلوك الذي يعتبره الخلقي أثراً للصفات النفسانية، و هو العمل الذي تتكون العادة بتكراره و يتكون الخلق باعتياده.

و لسنا بصدد بيان عناصر الارادة فى الانسان، فان لها بحثاً نفسياً خاصاً بها، و لا يهمنا أيضا أن نتعرض للبحث في كون الارادة حرة أو مسخرة فان له موضعا آخر. و قد اثبت فريق من الفلاسفة و علماء الكلام لارادة الانسان الحرية الكاملة فى العمل، و نفى حريتها جماعة آخرون منهم، والامام الصادق (ع) ممن يعتدل فى ذلك فيقول: (لا جبر ولا تفويض و لكن أمر بين امرين[1]).

أما هؤلاء الذين يقولون: ان الانسان مجبور فى كل ما يعمل و ان

---

١) الكافي الحديث ١٣ باب الجبر والقدر.

ارادته مسخرة لما ينفذه القضاء فانهم ينكرون محسوسا و يجحدون و اضحاو يكفي لابطال هذا الرأي أنه يلغي فائدة علم الأخلاق و يبطل بشريع القوانين للحد من الجرائم و فرض العقوبات على المجرمين.

ارادة الانسان هي المحرك الاول لقوة العمل، و بقوة هذه الارادة تكافح الغرائز الشاذة و تصطدم الميول المتطرفة، و بقوة الارادة تبتدىء الفضيلة، و يتم التوازن. و قد سمعنا قول الامام الصادق (ع): (ما ضعف بدن عما قويت عليه النية)[1]

الارادة عزيمة فى الانسان يوجد بها ما يروم و يدفع بها ما يكره و لها بسائر القوى الانسانية أسوة فهي تتصف بالقوة والضعف، و قوى الارادة. هو الانسان العظيم الذي يأتي بالعجاب، و يفعل ما يشبه المعجزات، إذا احسن توجيه ارادته الى اعمال الخير و محاسن الصفات، أما اذا توجه بها الى اعمال الشرّفانه يجر على نفسه نقصا آخر لا يقل خطراً عن ضعف الارادة. والعلماء النفسانيون يذكرون لتقوية الارادة شروطا و يدرجونها في عدد من النصائح:

«١» عين هدفك الاول قبل ان تبدأ بالعمل ثم لا تتردد بعد ذلك فان التردد يضعف الارادة.

«٢»: لا تضع وقتك فى ايجاد اعمال قليلة النفع، أو ما تكون نتيجته ذهاب الوقت فقط فان الوقت ـ كما يقولون ـ من ذهب.

«٣» ثق بأنك قادر على الوصول الى ما تريد، فان الثقة بالنفس تخفف عنك جهد العمل و تقطع لك نصف المسافة.

«٤» ثابر على العمل واتقنه و ان كان شاقا فان الفوز نتيجة المثابرة والا تقان.

«٥» عاود العمل بنشاط أكثر اذا أخفقت في عملك. فان الصعب

---

١) امالي الصدوق ص ١٩٨.

يسهل، والفقدة تحل.

«٦» اجعل نصيبا من منهاجك اليومى للعمل فان النفس يجهدها العمل المتواصل.

هكذا تنمو الارادة و تسمو، والرجل العظيم وليد ارادته و اعماله.

كمال قوة العقل هى الحكمة النظرية والعملية بأرقى مراتبها و كمال قوة العمل سلوكها على النظام العقلي الرشيد، و قد يصل الانسان فى هاتين القوتين الى حد كمالهما فيسميه الخلقيون بالانسان الكامل و يصفون انسانيته بالانسانية الكاملة، والامام الصادق (ع) فى عداد من يصفه بهذا الوصف فهو يقول: «دعامة الانسان العقل ـ و بالعقل يكمل»[1]

و لنستمع الى بقية هذا الحديث فان الامام يوضح فيه معنى الانسانية الكاملة عنده فهو يقول: «فاذا كان تأييد عقله من النور كان عالما، حافظا، ذاكراً، فطنا، فهما، فعلم بذلك كيف، ولم. وحيث، و عرف من نصحه، و من غشه، فاذا عرف ذلك عرف مجراه و محصوله و مفصوله، و اخلص الوحدانية والاقرار بالطاعة»، هذا هو حد الكمال فى قوة العقل، و هذه هي الحكمة التى يقول الفلاسفة فى معناها: «هي معرفة حقائق الموجودات» وأعلى مراتبها هو اليقين الذي يعرف فيه الانسان مجراه و موصوله و مفصوله، والذي يكون اثره الاخلاص فى الوحدانية والاقرار بالطاعة والذي قال فيه فى كلمة سابقة (اليقين يوصل العبد الى كل حال سني و مقام عجيب)[2].

أما الكمال فى قوة العمل فقد أتم الامام به حديثه المتقدم فقال: (فاذا فعل ذلك كان مستدركا لما فات وواردا على ما هوآت).

يقول الخلقيون القدماء. للعقل جهتان جهة نظرية. وجهة عملية

١) الكافي الحديث ٢٣ باب العقل والجهل.

٢) جامع السعادات ص ٧١.

فـاذا حـصلـت لـه الاسـتـقـامة واستقل بالحكومة على القوى انتج من جهته الأولى حـسـن الفكر وجودة الذكر، و اثمر من ناحيته الثانية الفطنة و حسن الـرأي، واجـتـمـاع هـذه الثمرات ينتج له حسن الفهم وجودة الحفظ . و ترى الإمـام الصادق (ع) يتدرج مع هذا الاصطلاح و يقرر هذه النتائج في حديثه المتقدم .

(٥)

الضمير

«ان للقلب أذنين، فاذا هم العبد بذنب قال له»
«روح الايمان لا تفعل، وقال له الشيطان افعل»
الامام الصادق(ع)

(٥)
الضمير

يتـألف الانسان من جزئين متباينين ، بهما يتم تركيبه و منهما تتكون قـواه و عـنـاصره ، و عنهما تصدر أفعاله و أفكاره و بمجموعهما يدرك قسطه من الحياة و ينال حظه من الرقي والكمال و هذان الجزء ان هما النفس والجسد .

جـزء ان مـتباعدان ائتلفا فكانا مزيجا عجيباً يحمل خواص الطبيعة و آثار ماورا الطبيعة ، و اصبحا بعد ائتلافهما شيئاً واحدا يدرك بادراك واحد .

والذي يهمنا ان نجد الا تصال قد أفاد هذين الجزئين قدرة كاملة لا يتمتعان بنظيرها لو كانا منفردين .

للنفس أهداف لا تصل اليها اذا لم تتصل بالجسد ، وللجسد غايات لا يبلغها إلا بمعونة النفس ، و يقول علماء الاخلاق : ان الاهداف التى يتوجه اليـهـا فى سـلـوكـه و مـعـاملاته قد تكون من مختصات الجسد ، و يمثلون لذلك بـاللذات الزائفة التي تحصل من الشهوات البهيمية ، و قد تكون من مختصات الـنـفـس و يمـثـلون لها بالكمالات النفسية التي تحصل للانسان من اكتساب

العلوم و اللذات العقلية التي تنشأ من اكتشاف الخفيات من الاشياء، وقد تكون مما يشترك فيه كل واحد من النفس والجسد على السواء او على التفاضل، و لكل واحد من هذه الاقسام أمثلة يذكرونها فى كتبهم، و قياس الالم فى ذلك قياس اللذة.

والانسان انسان بنفسه لا بجسده لان جميع افراد الحيوان تشاركه فى هذه الناحية، و محافظته على انسانيته بمقدار محافظته على معنويات نفسه، و سموه فى انسانيته بمقدار حرصه على انماء مداركه و استثمار مواهبه.

خلق الجسد ليكون آلة مسلوبة الارادة بيد النفس، توجهه حيث تشاء و تصرفه كيف تريد، و استقامة الانسان فى شيمه و اخلاقه، ورقيه في درجات الانسانية لا يحصل الا بذلك فان عدالة العقل الحاكم على النفس والمدبر لسلوكها تمتع النفس عن الاستئثار بحقوق الجسد او اعطائه اكثر مما يستحق.

اما اذا انعكس الامر واصبحت النفس آلة مسخرة للجسد يستعبدها لتحقيق ميوله و نيل اوطاره، فهنالك الشقاء الدائم والخسران العظيم لان العقل اصبح معزول الحكومة مردود الرأي.

والفلاسفة المتقدمون يقولون فى صفة النفس حين يريدون تعريفها: «هي جوهر ملكوتي يستخدم البدن فى حاجاته» و يقولون: ان هذا الجوهر الملكوتى الواحد يظهر بمجالي متعددة متفاوتة، و بالنظر الى كل واحد من هذه المجالي يطلقون عليه اسماً خاصا فيسمونه عقلا من حيث انه يدرك الامور الكلية المعقولة، و يسمونه روحا لان به حياة الجسد و نموه، و يسمونه قلباً لانه يتقلب بما يخطر فيه من الخواطر. والامام الصادق عليه السلام قد يجري مع هذا الاصطلاح الى حد قريب فيقول: «اجعل قلبك قرينا برا او ولدا و اصلا»[1] فيسمي النفس قلبا لما فيه من الخواطر ثم يجعله قرينا برا يجب اتباع

١) الكافي الحديث الاول باب نوادر الاستدراج.

نصحه فى الخواطر الحسنة وولدا بارا يحب ارشاده . عند الخواطر السيئة . و قد يجري مع الاصطلاح الى حد ابعد من ذلك فيقول : «من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه »[١] .

اما هذه الخاطرات التى تحدث فى النفس والتى باعتبارها سماها الخلقبون قلبا فهى افكار تعترض النفس اذا توجهت الى عمل من الاعمال تحثها على ايجاده او تحذرها من فعله فاذا كانت هذه الخاطرة تدعو الى الخير او تحذر عن الشر سميت « الهاماً » و ان كانت على العكس من ذلك سميت « وسوسة » .

و مصدر هذه الالهام قوة خفية فى النفس يشعر بها الانسان جليا عند مباشرة عمل يرضي به عاطفته او عقله أو عمل يغضبهما ، والمتأخرون من علماء الاخلاق يسمون هذه القوة « بالوجدان » و « الضمير» و يصفها بعض ارباب الفلسفة الحديثة «بصوت اللّه فى الانسان» و يسميها الامام الصادق عليه السلام روح الايمان بقوله : «ان للقلب اذنين روح الايمان يساره بالخير، والشيطان يساره بالشر، فايهما ظهر على صاحبه غلبه »[٢] و سأله بعض اصحابه عن روح الايمان هذا فقال : «اما رأيت الانسان يهم بالشيء فيعرض بنفسه الشيء يزجره عن ذلك و ينهاه قال نعم ، قال : هو ذاك »[٣].

الضمير واعظ القلب كما سماه فى حديثه السابق ، و هو روح الايمان كما يسميه فى قوله هذا و هو احدى الغرائز التى نشأت مع الانسان منذ يومه الاول و تدرجت معه فى عصوره ، و تطورت معه فى تطور احواله و غرائزه .

و يدلنا على هذا انا نجد الضمير لا يختص بأمة دون أمة أخرى ، فالضمير يوجد عند الامم المتوحشة التى لم تخضع لقانون ولم تعترف بنظام كما

---

١) امالي الصدوق ص ٦٥ .

٢) الجزء الخامس عشر من البحار باب روح الايمان .

٣) المصدر المتقدم.

يوجد بين الامم الراقية التي تشرع القوانين و تعترف بالانظمة، و بذرة الضمير توجد عند الصبى الناشىء و عند الطفل الدارج و لعل جرثومة الضمير توجد فى قسم من الحيوانات العجماء على ما يقوله بعض علماء الحيوان.

و للضمير قوتان متقابلتان يشعر الانسان بوجودهما قبل العمل و بعده.

قد يتوجه الانسان الى عمل يرضي به عاطفته مثلا و لكنه يغضب عقله فيرى نفسه حينذاك بين قوتين متقابلتين تحثه احداهما على العمل و تحذره الاخرى منه، وتتفاضل هاتان القوتان بمقدار ما فى الانسان من ميل الى الخير او الى الشر، و بمقدار ماله من التمسك بالصفات الحسنة او القبيحة، و قد تكون القوتان متكافئتين اذا تساوت ميوله.

فاذا ابتدأ فى انجاز العمل استمرت القوة الموافقة على الحث و التشجيع، و خفت صوت القوة المعارضة و لكن سكوتها يكون الى حين، و اذا اتم العمل شعر بتأنيب شديد من الناحية المكبوتة و خفت صوت الناحية المنتصرة.

و اما اذا ترك ذلك العمل ارضاء لعقله واجابة لوجدانه فانه يشعر بتأنيب قليل من ناحية العاطفة المكبوتة و بارتياح عظيم من الناحية الثانية و لذلك فلا يمكننا ان نصدق ان الضمير هو العقل العملي كما يراه الفيلسوف الالماني كانت[1] لان العقل العملي خاضع لحكومة العقل النظري، و وظيفته ترتيب الاعمال على درجاتها، واعطاء كل عمل منها مكانه الذى يليق به واذن فالعقل العملي يدعو الى الخير فقط، فلايسعنا ان نجعله تفسيرا للضمير.

والنظرات المتقدمة توضح لنا ان (للضمير) شؤونا و آثارا. فاثره قبل العمل حث او تحذير، و بعد حصول العمل ارتياح او تأنيب و معنى هذا ان صوت هذه القوة لا يختص في حال خضوں الرغبة او فى حالة انقماعها، و

١) الخلق الكامل لمحمد احمد جاد المولى ص ٣١٤ من الجزء الثاني.

يقول بعضهم: الوجدان والوسواس صوت رغبات مقموعة[1]، ولم يظهر لنا سر هذه الصفة التي يذكرها، على انا نعترف بأن صوت الوجدان يكون أشد ظهورا عند انقماع الرغبة التى يدعو اليها.

وانكر جماعة من الخلقيين كون الضمير غريزة من الغرائز، و قالوا هو قوة يكتسبها الانسان اكتسابا، و للتجربةوالاختبار و التقاليد والعادات اثر كبير فى تكونه،و يدلون على مذهبهم هذا بوجوه اهمها ما يأتي:

١- ان القوانين والأنظمة الوضعية هي الحافظة للضمير من التداعي والانهيار، و دليل هذا أنا لو رفعنا سلطان القوانين الخلقية والاجتماعية والدينية عن اية امة من الامم لوجدنا ان الحال فيها ينقلب رأسا على عقب، و ان أسس الضمائر الخلقية فيها تتداعى و تنهار، و هذا يدلنا على ان الضمير تابع لهذه الأنظمة يوجد بوجودها و يفنى بفنائها.

و جوابه ان الضمير قوة بسيطة تتقوى بالتمرين، والمحافظة على الواجبات و اتباع الانظمة، حتى تسيطر على جميع القوى: و تحكم على الغرائز، و تضعف بالمخالفة والاهمال حتى يخفت الصوت و يموت الضمير، و نعني بموت الضمير انعدام اثر هذه القوة لا انعدام وجودها فان الضمير اذا تتابعت عليه الصدمات والمخالفات يخفت صوته، فلا يبعث الى فعل خير، ولا يحذر من عمل شر، و هذا ما نسميه بموت الضمير اما جرثومة هذه القوة فلا تزال باقية فى الانسان مادام باقيا فى الحياة، و يمكن أن تعود الى حيز العمل يوماً ما اذا ما تعاهدها صاحبها بالتمرين والتقوية مرة اخرى.

٢- نجد الناس مختلفين فى ضمائرهم، فالشيء الواحد يكون حسنا عند أمة من الامم و هو بنفسه يعد قبيحا عند أمة اخرى. و هذا يدلنا على ان السبب هو الاختلاف فى العادات والتقاليد والازمنة و ما اشبهها.

و جوابه ان الضمير قوة تحث على الخير و تحذر عن الشر، اما تمييز

---

١) قول ينقله الاستاذ احمد امين في هامش اخلاقه.

الخير من الشر، والمقياس الذي يقاس به العمل ليعلم انه خير أو شر فهو شيء آخر وراء الضمير، و ليس الضمير معصوما في حكمه فهو يحث الانسان على ما يعتقد انه خير و يحذره عما يعتقد أنه شر، ثم لا يحاسبه عن مصدر هذا الاعتقاد فقد يكون مصدره مادة سخيفة او تقليدا باطلا .

و حكم الوجدان يتعدى اعمال الشخص نفسه الى اعمال الغير فهو يكبر كل عمل يعتقد انه خير، و يحتقر كل عمل يعتقد انه شر، وان كان من اعمال الغير. و ترحيب الضمير بذلك العمل او تحذيره عنه يتفاوت بحسب ما يعتقد فيه من جهات الخير او الشر، و بحسب شدة ذلك الاعتقاد وضعفه و بمقدار تمسك الشخص بالمثل الاعلى في اخلاقه، و لذلك نرى التفاوت العظيم بين الناس في ضمائرهم .

و اذا كان الانسان الكامل هو الذي يستمد رشده من العقل، و اذا كانت قوة الوجدان بمقدار محافظة الانسان على عمل الخير في سلوكه و معاملاته كانت نتيجة هذا ان الوجدان الكامل والضمير عند هذه الطبقة من الناس قوة واحدة و ليس لها إلا صوت واحد فهو لا يعرف الا الحق و هو لا يأمر إلا بالخير فان الصوت الآخر من هذه الغريزة قد أماته كبت الميول و تحديد الشهوات .

والوجدان هو المبدأ الاول للتوبة والتكفير عن الخطايا لان الضمير إذا شعر بالخطيئة، و تبين عظم الذنب وجه الى النفس لواذع من التأنيب و قوارص من العتاب والتوبيخ، و قد يتأثر الانسان من ذلك فيندم و هذا الندم هو التوبة في مرحلتها الاولى. و كم للضمير الفاضل من يد بيضاء على الانسان في تهذيب نفسه، والاخذ بيده الى سبيل النجاح و تسديده في ما يعمل و ما يقول، و يعلق الخلقيون المتأخرون على الضمير اشياء كثيرة يترامى بها العد، و يطول فيها الكلام .

والضمير محترم عند الانسان فقد يرتكب الرجل اخطاء وجدانية و

مـصـدرها قصور فى التفكير، او تسرع في الحكم الا انه لا يقبل من الناصح ان يتهم ضميره بالخيانة و قد لا يصغي الى ارشاده بعد هذه التهمة، لان الضمير محتـرم عـند الانسان و من الحزم للمرشد في امثال ذلك ان يدله على وجه الخير فقط من غير ان يتعرض لكرامة الضمير.

(٦)

الفضائل الفرعية

«من ملك نفسه اذا رغب واذا رهب، واذا اشتهى»
«واذا غضب. حرم اللّه جسده على النار»

الامام الصادق(ع)

(٦)
الفضائل الفرعية

علمنا ان الخلق الكريم من كل قوة هو التوسط فيها ، وان الافراط في ك القوة والتفريط فيها رذيلتان خلقيتان تعملان على هدم تلك الفضيلة ، و ملان نفسيان يحاولان سد تلك الباب الموصل الى الخير و المشير الى طريق عادة ، ولا يستطيع الانسان ان يستمر في خلقه الكريم الا بمحاربة هذين دو ين اللدودين و اشدهما تاثيراً عليه هو اقربهما الى نزعاته و اكثرهما موافقة وله ، والانسان فى الكثير من افراده ميّال في نزعاته الى احد الجانبين ، و هو الاكثر من هذا الكثير يميل الى جانب الافراط و الزيادة .

اما المعتدلون بغرائزهم، المتوازنون في نزعاتهم، فهم قليل و اقل من ليل .

و لعل هذا و امثاله يكشف لنا حكمة مستورة في بعض الاحاديث اردة عن الائمة من اهل البيت (ع) في الحث على الفضائل التى تقرب اهرها التفريط ، فهي تحث على الزهد والقناعة لتقابل الافراط في بهيمية

الشهوة، و تدعو الى الحلم والرفق لتحد من وحشية الغضب، و كم لامناء الشرع في هذا و امثاله من كلمة جامعة.

و قد عرفنا ان الاعتدال الخلقي يقوم بملكات اربع يعدها علماء الاخلاق اصولاً للأخلاق الفاضلة و رؤوساً للملكات الصحيحة الفرعية، فمن الجدير ان نشير الى بعض خواص هذه الاصول، و نستعرض جانبا من فروعها لنلم بعض الالمام بآراء الامام الصادق (ع) في ذلك.

الحكمة

التوازن العادل في القوة الفكرية هو الحكمة، والرذيلة التي تقابل الحكمة من جانب التفريط هي الحمق والبلادة و يعنون بها تعطيل القوة الفكرية عن العمل، و كبت مالها من مواهب و استعداد، والخسيسة التى تضادها من جانب الافراط هي المكر والدهاء ويريدون منه التجاوز بالفكر عن حدود البرهان الصحيح، واستخدام قوة العقل في ماوراء الحق فقد تثبت نتائج ينكرها الحس و قد تنفي اشياء تثبتها البداهة.

و لست ارى ان لفظ المكر والدهاء يدلان على هذا المعنى لانهما بمعنى الاحتيال والخداع، و هو شيء آخر وراء الحكمة الباطلة التى يقصدها هؤلاء المفسرون، اما الدهاء بمعنى جودة الرأي فهو يقرب من معنى الحكمة، و اذن فلنسم هذه النقيصة الخلقية (بالحكمة الباطلة) كما يسميها علماء الاخلاق.

و نحن اذا فحصنا الفضيلة العقلية (الحكمة) وجدناها تتألف من عنصرين اساسيين لا غِنًى لها عن احدهما:

قوة فكرية في طريقها الى التوازن،

و علم يرشد هذه القوة الى طريق الاعتدال.

ليس التوازن في القوة الفكرية من الاشياء التي تمنحها المصادفة، و

يكونها الاتفاق، و ليس بالامر السهل الذي تكفي في حصوله للانسان خبرة قليلة و تجربة نادرة، لانه توازن في كل ما يعتقد، و توازن في كل ما يقول، و توازن في كل ما يعمل، و أنى للقوة الفكرية بهذه الاستقامة التامة اذا هي لم تستعن بارشاد العلم الصحيح، وأنّى للعقل بمفرده ان يبصر هداه في الطريق الشائك والمسلك الملتوي.

كلنا نتمنى التوازن العادل في طبائعنا والاستقامة التامة في سلوكنا، واي افراد البشر لايتمنى الكمال لنفسه ولكن الجهل يقف بنادون الحد، و ميول النفس تبعدنا عن الغاية، والعقل هو القوة الوحيدة التي يشيع فيها جانب التفريط بين أفراد الانسان، و ذلك من تأثير الجهل، فالجهل اول شيء يحارب به علم الاخلاق، لانه اول خطر يصطدم به الكمال الانساني، و أول انحطاط تقع فيه النفس البشرية، و أول مجرّئ لها على ارتكاب الرذيلة، بل هو اول خطيئة وآخر جريمة.

يرتكب الجاهل اخطاء خلقية تعود بالضرر على نفسه و قد يعود ضررها على امته و شعبه أيضاً، و عذره في ذلك أنه جاهل، و اذا كان الفقيه لايعد الجهل عذراً في مخالفة النظام الشرعي، فان الخلق اجدر ان لا يقبل ذلك العذر لان الفقه اسلس قياداً، والفقيه اكثر تسامحاً اما العالم الخلق فانه يطبق نظامه بعنف، و يقرر نتائجه بدقة، ولا يجد في المخالفة عذراً لمعتذر، ولا سيا اذا كان ذلك العذر احد المحظورات الخلقية كالجهل.

و اذن فمن الرشد أن يكون العلم اول شيء يفرضه علم الاخلاق، و من الحكمة ان يقول النبي العربي (ص) (طلب العلم فريضة على كل مسلم) و أن يقول وصيه الامام الصادق (ع): (إني لست احب ان ارى الشاب منكم اِلا غاديا في حالين: اما عالماً أو متعلما، فان لم يفعل فرّط، فان فرّط ضيّع، فان ضيّع أثم، فان أثم سكن النار. والذي بعث محمداً بالحق).

الشباب دور القوة والعزيمة، و عهد الطموح والرغبة، و زمان الجد

والعمل والشباب دور تكامل القوى، و توثب النزعات، و بعد ذلك كله فالشباب هو الدور الاول الذي يتسلم فيه الانسان قيادة نفسه، و يختص به تهذيب خلقه و تثقيف ملكاته، و لعل المربي قد أساء الصنع بتربيته فأنجد في الطريق و أتهمت الغاية، و لعل البيئة أعدت غرائزه لما لا يحمد فأضافت الى النقص نقصا، و جمعت الى النار حطبا، و للنفس في ظل الشباب اماني واحلام، و للشاب دافع من الشهوة ومحفز من الطموح و قائد من العزيمة، والقوة كما قيل مبدأ شرور أو مصدر خيرات.

القوة اداة عاملة تثمر الخير و تنتج السعادة اذا دبرتها الحكمة، و قادتها المعرفة، و هي على الضد من ذلك اذا قادها الجهل، و حركتها العاطفة واستخدمتها الميول، أما العقل الذي عهد اليه باتباعه فهو لايزال في عهد فتوة جديدة، و في ابتداء سياسة مستحدثة، و هو في هذه الحكومة الفتية قليل الانصار والجند، قليل التجربة والحنكة، وصعف الحاكم عامل قوي يتخذ منه الطائش مبرراً لعمله، و ينتهزه القوي فرصة لتحكماته، فكيف تكون نتيجة هذا الشاب المسكين، و ما الذي ينتهي اليه امره.

سيسقط في اخلاقه ثم يسقط، و سيخسر اعز شيء عليه في الحياة من حيث لايشعر بألم هذه الخسارة لأنه يجهل و بالأحرى لانه لايحس.

والحل الوحيد لهذه المشكلة أن يجعل لعقل ذلك الشاب من العلم الصحيح مسعداً؛ و من الحكمة الصالحة معيناً ليصبح قويا بعد ضعف، و كثيراً بعد قلة، و عاملا بعد خمود، على ان التجربة والوجدان و مقررات علم النفس تشهد بأن التعلم في السن الباكر ابلغ في التأثير و اعظم في الاستفادة.

و يقول الامام الصادق (ع) ايضاً: (لا يفلح من لا يعقل ولا يعقل من لا يعلم و بين المرء والحكمة نعمة العالم والجاهل شقي بينهما)[1] و هذه الكلمة على قصرها تتضمن نتيجة البحث و صفوة القول في المورد، و يقول

---

١) الكافي الحديث ٢٩ كتاب العقل والجهل.

ايضاً: (لوددت ان اصحابنا ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)[١] ارأيت كيف يفرض العلم على اصحابه فرضا، ثم يتمنى ان يستعمل القوة في تطبيق ذلك الفرض، ولكن العلم الذي يفرضه على اصحابه هو العلم الذي يأخذ بيد الانسان الى السعادة، و يرقى به الى الكمال النفساني، و يقول في حديث آخر: (كثرة النظر في الحكمة تلقح العقل)[٢].

شجرة كريمة المنبت؛ طيبة الانتاج، تمت جذورها و زكت تربتها، و لكنها لا تأتي بالثمر الطيب اذا لم تسعف باللقاح المناسب؛ تلك الشجرة هي العقل؛ و ثمارها هي الاخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، اما لقاحها فهو كثرة النظر في الحكمة؛ هكذا يقول الامام الصادق (ع) في هذا الحديث، و هكذا يكون العلم هو اليد الاولى في تأسيس الفضيلة الاولى والساعد القوي الذي يمهد قاعدة الخلق الكامل.

و من الجهل ما يسمونه بالجهل المركب و هو جهل يشبه العلم في الصورة و شؤمه على الانسان اشد من الجهل البسيط، لانه مؤلف من جهلين والجهل رذيلة كبرى اذا كان مفرداً فكيف اذا كان مكرراً والجاهل المركب عالم في اعتقاده و عمله صحيح في رأيه و لذلك فهو يرتكب الاخطاء و يعمل القبائح ولا يسمع نصح ناصح ولا يصده عذل عاذل.

ليقل القائلون ماشاؤوا وليخطئوه في عمله اذا ارادوا، وماذا عليه من نصح الناصحين و عذل العاذلين اذا هو ارضى عقيدته، و أقنع ضميره، انهم هم المخطئون فيما يقولون.

بهذا يعلل الجاهل المركب اعماله وأخطاءه من حيث لايعلم ان على عينيه منظاراً يلون له الحقائق وعدسة تقلب له الصورة، من أين له بالمرشد الخبير الذي يعرفه ان هذا اللون الذي يراه هو للمنظار لا للحقيقة، وان الانقلاب انما

---

١) الكافي الحديث ٨ باب وجوب طلب العلم.

٢) تحف العقول ص ٨٩.

هو في العدسة لا في الصورة، لينكشف له الحق على صورته او ـ على الاقل ـ ليعلم انه لايعلم.

و يحدثون عن احد الخبثاء انه اشترى حماراً متأنقاً لا يأكل غير النبات الطري وان بلغ به الجهد وامض به الجوع، فأعيى صاحبه منه ذلك لانه لا يجد النبات الطري في كل وقت فاحتال على الحمار وآلبسه منظاراً كبيراً اخضر ثم قدم له مقداراً من التبن المبلول، فشرع الحمار يأكل واخذ صاحبه يضحك.

ليأكل الحمار من النبات الاخضر الطري في عقيدته و ماذا عليه اذا رآه الآخرون تبناً اصفر مادام هو لا يرى ذلك. انهم واهمون و انهم مخطئون.

لايلام الانسان اذا ارتكب عملا فاسداً و هو يعتقد بانه عمل صالح اذا هو لم يقصر في البحث، و لكن هذا لا يكفي لتثقيف نفسه و تهذيب ملكاته، و اذن فالعلم الذي يكون مصدراً للاخلاق الفاضلة هو الذي يوافق الواقع المعلوم، هو اليقين واليقين فقط.

نعم هو اليقين (الذى يوصل العبد الى كل حال سني و مقام عجيب) كما يقول الامام الصادق (ع) و هو النور الذي قال فيه: (فان كان تأييد عقله من النور كان عالماً و حافظاً) و هو الحكمة التي يقول فيها: (كثرة النظر في الحكمة تلقح العقل)[1].

ومن آثار هذا اليقين اطمئنان نفس الانسان و خلوده الى السكون، والرضا في كل مايعطى و في كل ما يمنع، فان: (من صحة يقين المرء المسلم ان لا يرضي الناس بسخط اللّه ولا يلومهم بما لم يؤته اللّه)[2].

---

١) اشرنا الي مصادر هذه الاحاديث في الابحاث السابقة.

٢) الكافي الحديث الثاني باب فضل اليقين.

العدل

قوة العمل مبدأ كل سلوك و مصدر كل خلق و قد تكرر في الفصول السابقة ان العدل هو مشايعة قوة العمل لقوة العقل و ان العادل هو الذي يتبع ارشاد العقل في كل ما يقول و في كل ما يعمل.

و قد علمنا ان قوة العمل هذه لا تختص بها ملكة معينة من الاخلاق و لكنها تكون جميع الملكات التي تنسب الى القوى الاخرى حتى سلوك العقل نفسه، و ان التوازن في قوة العمل توازن في جميع الملكات والانحراف فيها انحراف في سائر الاخلاق، والامام الصادق (ع) يقدر هذه النتيجة بعينها حين يسأل عن صفة العدل في الانسان فيقول: (اذا غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم)[1]. لا يكون الانسان عادلا حتى يخضع الشهوة لحكم العقل فيغض طرفه عن المحارم، و يلجم الغضب بلجام الحكمه فتترفع نفسه عن المظالم، وصفة العدل هذه هي التعفف بمعناه العام، و ضبط النفس الذي يقول فيه: (من ملك نفسه اذا رغب و اذا رهب و اذا اشتهى و اذا غضب حرم اللّه جسده على النار)[2] واكثر اخلاقيات الامام الصادق (ع) تشير الى هذا المعنى ولو من ناحية خفية.

لكل واحدة من قوى النفس و غرائزها حقوق يجب أن توفى إليها كاملة غير منقوصة، و لكل منها ميول شاذة يجب أن يضرب من دونها ألف حجاب، و ضبط النفس هو تعادل هذهالقوى في السلوك و تساو يهافي الحقوق فتأخذ كل قوة ما يجب لها و تمنع عما يحظر عليها.

وأكثر الملكات المعتدلة ـ إن لم نقل جميعها ـ إنما تكون بتعاون جميع

---

١) تحف العقول ص ٨٩.

٢) أمالي الصدوق ص ١٩٨.

القوى النفسانية. فالتوازن في قوة الشهوة مثلا يفتقر إلى قوة العمل في تكونه، و يحتاج إلى قوة الفكر في تحديده و تمييز غايته، و إلى الشجاعة في الثبات عليه و تحمل الآلام في سبيل الحصول عليه، العفة كبنت الميول المتطرفة من قوة الشهوة، وقمع الرغبات الشاذة منها إلا أنها لا تحصل للشخص إذا لم يكن له من الشجاعة ما يتحمل به ألم ذلك الكبت، ومن الثبات وقوة الارادة ما يستمر به على تلك الاستقامة، فضبط النفس في الاكثر مزيج من قوى متعادلة في الحقوق، متفاضلة في التأثير، و بعض هذه القوى ايجابي و بعضها سلبي و انما قلنا في الاكثر لأن بعض الملكات العقلية لايحتاج إلى قوة الشهوة مثلا.

بقي علينا أن نعرف معنى هذا الاختصاص الذي يذكره علماء الأخلاق، و يصرون عليه كثيراً، فان الاستقامة في الخلق إذا كانت لا تحصل إلا بمساعدة أكثر من قوة واحدة فلماذا يختص بعض الفروع ببعض القوى؟ و لماذا تعد العفة من ملكات قوة الشهوة فقط؟ و يكون الحلم من فروع قوة الغضب خاصة؟

والسر في ذلك أن الملكة الخلقية هي تلك القوة التي تنسب إليها بعد أن يدخل عليها التهذيب، فالعفة شهوة مهذبة، والشجاعة غضب متوازن، والحكمة فكر مستقيم.

ومن هذا التعاون النفساني المتقدم يظهر لنا معنى قول الامام الصادق (ع) في بعض وصاياه لأصحابه: (عليكم بالورع و صدق الحديث وأداء الأمانة وعفة البطن والفرج تكونوا معنافي الرفيق الأعلى)[1]. ملكات خمس يوصي الامام اصحابه بالمحافظة عليها ليكونوا معه في الرفيق الأعلى من الجنة، و إذا نظرنا إلى هذه الملكات رأيناها تنتهي إلى قوة واحدة، او الى قوتين لاغير، فان الورع ينتهي الى الشجاعة إذا كان ورعاً عن نزغات الغضب، و إلى العفة إذا كان ورعاً عن ميول الشهوة، و صدق الحديث أيضاً

١) الجزء الخامس عشر من البحار باب الورع و اجتناب الشبهة.

قد ينتهي الى هذه وقد ينتهي الى تلك ؛ أما الملكات الثلاث الباقية فهي من فروع العفة لاغير، ولكن الامام يضمن لأصحابه أن يكونوا معه في الرفيق الأعلى إذا اعتدلوا في هذه الملكات الخمس.

هو توازن في قوة الشهوة ولكنه يلازم اعتدالا في قوة الغضب، واستقامة في قوة الفكر، يستحيل على المتهور ان يكون ورعا، وعلى الجبان ان يلتزم صدق الحديث. اما العقل ـ و هو المرشد الى ذلك التوازن ـ فلا بد و ان يكون معتدلا ايضا. على ان الورع الذي يبتدئ به هذه الكلمة قريب المعنى من التعفف و ضبط النفس والاخلاق التى يعددها ملكات عامة تظهر آثارها في جميع الاعمال والاقوال فاذا استقامت هي كان الانسان مستقيما في اقواله و اعماله، و من اولى من الانسان المستقيم بالرفيق الاعلى.

العدل وضع جميع القوى تحت نفوذ العقل فيعطي كل واحدة من هذه القوى حقوقها كاملة فاذا عمل الانسان ذلك مع الناس الآخرين سميت هذه الصفة منه انصافا و عدلا بمعناه الخاص.

و هذا العدل هو اساس الملك العادل و محور المدينة الفاضلة والمجتمع المثالى، و هو قد ينتهي الى العفة و قد يكون من الشجاعة و يقابله من جانب الافراط الجور على الغير والتعدى على حقوقه، و من جانب التفريط اهمال الحقوق المحترمة للنفس و كلاهما جرثومة لكثير من الاخلاق الفاسدة.

والعدل يكون صفة للفرد و يكون صفة للمجتمع.

العدل الفردي

للعدل الذي يوصف به الفرد مرتبتان تظهر احداهما في سلوك الشخص مع الناس الآخرين و معاملاته معهم، فاذا اخذ الانسان حقه كاملا و أعطى الغير حقه موفوراً سمي عند الخلقيين عادلا و منصفا، و في

هذه الصفة يقول الامام الصادق (ع): (سيد الاعمال ثلاثة: انصاف الناس من نفسك حتى لا ترضي بشيء لنفسك الا رضيت لهم بمثله[١]).

و من الناس من يتشاءم الى حد بعيد من التشاؤم فيعد العدل في الانسان مستحيلا أو هو شيء يشبه المستحيل، فالانسان وحش متمدين.

والظلم من شيم النفوس، فان تجد ذا عفة، فلعلة لا يظلم

و يذهب بعض هؤلاء المتشائمين الى اكثر من هذا، فيقولون: (الظلم سر كامن في الطبيعة، فالنبات يعدو قويه على ضعيفه والحيوان يفتك كبيره بصغيره والانسان يستبد حاكمه بمحكومه) و هذه الفكرة وليدة عن القول بأن الانسان شرير بالطبع والفلاسفة منقسمون حول هذا الرأي، والشرع يؤيد المذهب المعتدل في ذلك، و يجد الباحث المتتبع شواهد كثيرة على ذلك من اقوال الامام الصادق (ع).

لا ينكر المتشرعون شيوع الظلم بين افراد الانسان، و لكنهم يقولون: مصدر ذلك هو اهمال الغرائز النفسانية حتى تستبد بالحكم، واعطاء النفس قيادها لتسير مع الاهواء بلا رقيب ولا حسيب، أما نفس الانسان و غرائزه فهي مهيأة للمسير فى طرق الخير و طرق الشر حسب ما يرتضيه له سلوكه و ترسمه له ارادته و اختياره، ولو تعاهد الانسان غرائزه بالتهذيب والاصلاح لسارت نفسه على الهدى، و حقيقت له العدل بجميع معانيه، و لعل الحكيم العربى لا يريد اكثر من ذلك في بيته المتقدم.

والمرتبة الثانية من العدل الفردي تظهر في الفصل بين المتخاصمين باعطاء الحق لصاحب الحق من غير حيف ولا تحيز، و عدالة القاضي هذه عند الامام الصادق (ع) مظهر من مظاهر العدل النفساني لانه يقول: «من انصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره»[٢] و هذا أفضل ما يوصف به

---

١) أصول الكافي الحديث الثالث من باب الانصاف والعدل.

٢) الكافي الحديث ١٢ باب الانصاف والعدل.

الحاكم العادل والقاضي المصلح، و هل يتصور التحيز في الحاكم اذا أنصف الناس من نفسه، و هل ينسب اليه الحيف اذا كان أحب الناس اليه و ابغضهم عليه أمام عدله بمنزلة واحدة؟ و اذا علمنا ان العدل في المعاملة يلازم العدل الخلقي العام وجدنا أن العدل في رأي الامام (ع) سلسلة واحدة يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقاً لا تفكك بين أجزائه.

أقول: ان العدل في رأي الامام سلسلة واحدة، لأنه يشترط في الحاكم ان ينصف من نفسه قبل أن ينتصف امن غيره، ثم يقول ان الانصاف من النفس أشد الاعمال أو هو من أشدها، و يحدثنا عن ابيه النبي (ص): «من واسى الفقير و أنصف الناس من نفسه فذلك هو المؤمن حقاً»[1] و قد عرفنا فيما تقدم أن المؤمن حقاً هو الانسان الكامل الذي توازنت ملكاته و اعتدلت اخلاقه، على أن اشتراط العدالة الشرعية في القاضي من المقررات الواضحة في المذهب الجعفري.

ثم هو يوضح ذلك ايضاحاً لا يقبل التشكيك حين يقول: «اتقوا الحكومة فان الحكومة انما هى للامام العالم بالقضاء العادل في المسلمين»[2] الحكومة حق خاص للولي العام، العالم بالقضاء والعادل الاول في المسلمين، فلا تجوز لغير العالم بالقضاء، ولا لغير العادل من المسلمين، هكذا يقول الامام الصادق (ع) في صفة الحاكم، و هكذا يجب ان يكون.

الحاكم هو الممثل للعدل الديني أو المدني في الحقوق والدماء، و من الممتنع أن يمثل العدلَ جائر، والحاكم أمين الامة على مقدراتها و أمين السلطة على رعاياها، و من القبيح أن يؤتمن خائن، و اذا عجز الانسان أن ينتصف لنفسه من نفسه، فهو عن انصاف غيره من غيره أعجز، و اذا كانت نفسه أول رافض لحكمه فان غيره أولى برفضه و أحق برده، ولأمر ما حذرت

---

١) الوسائل كتاب الجهاد الحديث ١٣ باب وجوب انصاف الناس.

٢) الكافي الحديث الاول كتاب القضاء.

الشريعة الاسلامية ان يصدر القاضي حكمه و هوغاضب.

و يقول الامام الصادق (ع) «لسان القاضى وراء قلبه، فان كان له قال و ان كان عليه امسك»[١] اجل ان لسان القاضى من وراء قلبه، والله من وراء قلبه و لسانه، وكم يهدم القاضي من صرح، و كم يقوض من دعامة بكلمة يقولها غافلا او يصدرها غاضباً، و في هذا الحديث تحذير شديد من التسرع والاستعجال، فان الحكم الجائر يكون على الحاكم قبل ان يكون على المحكوم. والحكم العادل يكمون له قبل ان يكون للمنتصر.

اما الرشوة على الحكم...، اما بيع الضمير... و الدين...، والقانون، و احترام النفس... و مقدرات الامة... و اعتماد السلطة، اما سحق جميع المقدسات بالقدم بازاء ثمن حقير يسمى بالرشوة فهو الدناءة فى الهمة، والحقارة في النفس، والخيانة للمجتمع، و هو السحت المحرم في كل نظام و على لسان كل مشرع، و هو الكفر بالله العظيم في قول الامام الصادق (ع)[٢].

و للعدل عدو جائر قد يلبس ثوب الصديق، و هو التحيز والممالاة، فقد يجور الحاكم من حيث انه يظن العدل، و يظلم من حيث انه يعتقد الرحمة، و للحب القلبي والمظاهر الخارجية في ذلك اعظم الأثر.

من السهل على النفس اذا اجبت ان ترتكب ثم تعتذر، و ان تفعل ثم تتعلل، لترضي الوجدان المكبوت، و تسلي العدل المرغم، و قد يخادع الضمير بتلك المعاذير فيقبل، و لكن العدل يسجلها صحيفة سوداء في ديوان الخائنين، والحاكم مسؤول عنها امام الله، و امام القانون الادبي.

ومن هذه الناحية نجد فرقاً كبيراً بين عدل القضاء و عدل المعاملة، فان الحب والميل القلبي قدينافيان عدل القضاء لانهما يثمران التحيز

---

١) الوسائل الحديث ٢ باب كراهة القضاء في حال الغضب.

٢) الوسائل كتاب القضاء الحديث ٨ باب تحريم الرشوة.

والمحاباة. اما العدل في المعاملة فانه يزكو على الحب، و يتكامل على الود لان المحب لا يجور على حبيبه، والصديق لا يظلم صديقه، و كثيراً ما بعث الحب على ايثار، و لعل هذا هو السر الاول في الحث على الحب الذي بالغت فيه الشريعة الاسلامية، و ندب اليه امناء الوحي، والذي يقول فيه الامام الصادق (ع): «هل الايمان الا الحب»[1]، و يقول: «ان المسلمين يلتقيان فأفضلهما أشدهما حبا لصاحبه»[2] و للحب والصداقة بحث سيأتي.

العدل الاجتماعي:

يولد الانسان و ينمو، و يترعرع و يشب، و يتقلب في ادواره، و يتنقل في اطواره، و هو في جميع هذه الاحوال جزء من المجتمع الذي احاط به، والانسان مدين للمجتمع في اكثر صفاته و شيمه، فهو الذي حدب عليه وليداً، و غذاه طفلا و تعاهده بالتوجيه يافعاً، و هو الذي لقنه اللغة في طفولته و مهد له طريق التعلم في صباه، و هيأله اسباب المعيشة في شبابه، و هو الذي علمه كيف يفكر و كيف يعمل، و كيف يأخذ، و كيف يعطي.

أكثر خصال الانسان عادات يكتسبها من بيئته، وأكثر غاياته ميول يرثها عن اسلافه، واكثر علومه نتائج يقتبسها من مرشديه، والاجتماع هو الصلة المتينة التي تجعل المجتمع كالجسم الواحد الحي، و تجعل الأفراد كالأعضاء لذلك الجسم، يقوم كل عضو منها بما يخصه من الاعمال التي تصلح المجتمع، و لذلك فالافراد مشتركون في الغاية و متماثلون في الحقوق والواجبات، ورقي الفرد في شخصيته الاجتماعية بمقدار ما ينتج لهذا المجتمع من خير، و ما يؤدي اليه من ثمرة طيبة، و سقوطه فيها بمقدار ما يأتيه من شر و عمل فاسد، و قد يتمادى عمل السوء ببعض الافراد فيكون كالاعضاء

١) الكافي الحديث ٥ باب الحب في الله.

٢) الحديث ١٤ من المصدر المتقدم.

الموبوءة التي يجب فصلها عن الجسم وقاية له من شرها.

المجتمع جسم حي مدرك، له حياته الخاصة، ولحياته نظامها الخاص، وهو يتصف بالتوازن والانحراف في سلوكه كما يتصف الفرد الواحد من الناس، والنظام الاجتماعي العادل هو الذي يكفل للمجتمع ولافراده على السواء جميع الحقوق والواجبات من غير تعد ولا تقصير، فاذا سار المجتمع على ذلك النظام العادل، وطبقه على سلوكه وسلوك افراده سمي ذلك التوازن منه عدلا اجتماعياً.

العدل الاجتماعى ان تسير الامة الى المثل الأعلى في الحياة وفى الاخلاق، وان تسعي ما امكنها السعي الى السعادة العامة والكمال المطلوب، وان تعد للأفراد طرق الوصول الى الخير، فتنشئ المؤسسات الكافلة لخير البلاد والحافظة لخيراتها وتؤسس المعاهد الصالحة لاعداد الرجال وتثقيفهم بالثقافة الصحيحة، وان تتمسك بالانظمة الشرعية الموجبة لحفظ الحقوق وسلامة النفوس، على أن تسير في جميع ذلك وفق النظام الصحيح، والحكمة الرشيدة التي يأمر بها العقل، ويقرها الشرع.

وتعاون افراد الامة وتضامنهم أعظم موجب لتحقق هذا العدل وابلغ موثر فيه، ويقول المتأخرون من الحلقيين إن المسؤول عن تحقيق هذه الغاية هى الحكومة التى تسيطر على الامة وتتحكم في مقدراتها. اما افراد الامة فيقعون في الدرجة الثانية من هذه المسؤولية، ووظيفة الفرد هي مساعدة الحكومة في تحقيق الغاية بما يمكنه من الوسائل.

وهذا الرأي بين النقص لان العدل الاجتماعي هو التوازن التام في سلوك المجتمع وسلوك افراده، وتعاون الجميع على العمل فى سبيل الخير واكتساب الصفات الخلقية المثلى، ونيل السعادة العامة، وهذا كله من مختصات المجتمع نفسه ومختصات افراده، أما ما تقوم به الحكومة من انشاء المؤسسات والمعاهد الصالحة فهو احد مقدمات العدل الاجتماعي.

والامام الصادق (ع) يرى ان الوسيلة الوحيدة لانشاء هذا المجتمع المثالي هو اصلاح الافراد و اعدادهم لان يكونوا اعضاء صالحين، و تزو يد كل فرد منهم بما يجب عليه للاسرة و للمجتمع، فاذا صلح الفرد و تهذبت الاسرة صلحت الامة، و توجهت الى سبيل الخير والسعادة، و اذا احتاج المجتمع بعد ذلك الى شيء كان العدل الثابت للافراد دافعاً لهم الى التعاون والتضامن، و هذا هو المنهج الذي سلكه القرآن لاصلاح البشر و تهذيبهم.

يقول الامام (ع): (يحق للمسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمساواة لاهل الحاجة، و تعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما امركم الله رحماء بينكم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من امرهم)[١] و يقول: (ما قدست امة لم يؤخذ لضعيفها من قو يها غير متعتع)[٢].

و قد سمعنا الكثير من ارشاداته للفرد، و سيأتي ما هو اكثر، و قد قال في ذلك ايضاً: (ان استطعت ان لا تخالط احداً من الناس إلا كانت يدك العليا عليه فافعل)[٣] والبد العليا هي التي تبتديء بالمعروف و تسدي الاحسان، و تؤدي حقوق الغير اليه كاملة، و قد سمعنا قوله: (سيد الاعمال ثلاثة: انصاف الناس من نفسك حتى لا ترضى بشيء لنفسك إلا رضيت لهم بمثله)[٤].

و يقول في تهذيب الاسرة: (اذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة اشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم و شماتة الاعداء بهم و هى ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيتشتت امرهم، والتواصل ليكون ذلك حادياً لهم على الالفة، والتعاون لتشملهم العزة)[٥] و هو يتدرج في حديثه عن تآلف الاسرة

---

١) الكافي الحديث ١٥ باب حق المؤمن.

٢) الوسائل الحديث ٩ باب وجوب الامر بالمعروف.

٣) الكافي الحديث ١٤ باب حسن الخلق.

٤) اشرنا الى مصدر الحديث فيما سبق.

٥) كتاب تحف العقول ص٧٨.

تدرجاً طبيعياً، فأول مراحله هو نبذ التحزب والتفرق، و اهم اسباب التحزب هو الحسد، ولا سيما اذا كان بين الاقوياء فيجب نبذه لانه يشتت الامر و يفل الحد، والمرحلة الثانية هى التواصل والبر لان التواصل يسبب الالفة والمحبة، و هذه هي المرحلة الثالثة و هى الاخيرة و واجب الاسرة فيها هو التعاون بين الافراد في كل مهمة ليعيشوا اعزاء في جماعتهم و افرادهم.

اما الحكومة و ممثلها التام في عصر الامام الصادق (ع) هو السلطان فان الامام يفرض عليه في ادارته: (حفظ الثغور و تفقد المظالم و اختيار الصالحين لا عمالهم)[1] و يلزمه لرعيته: (بمكافأة المحسن ليزداد رغبة في الاحسان، و تغمد ذنب المسيء ليتوب و يرجع عن غيه و تألفهم جميعاً بالاحسان والانصاف)[2] وللامام فيما يشبه هذا كلمات كثيرة تحدد واجبات السلطان، و وظائف الامراء و فروض الرعية.

و كل ما نستطيع ان نقوله عن هذه الكلمات و امثالها انها نصائح من الامام (ع) يرشد بها خلفاء عصره و من يشابههم في الحكم، ولا يسعنا ان نعتبرها رأياً للامام في الحكومة المثالية التي ينشدها للمجتمع المثالي.

اما الحكومة المثالية في رأي الامام فهي فكرة كبيرة ضعف قلب الزمان عن تحقيقها، و صغر الزمان عن احتمالها فطواها فى مهدها يوم لف النبي (ص) في اكفانه، و بقيت امنية مكبوتة في قلب الامام الصادق (ع) و فى قلوب زعماء الانسانية من ابائه و ابنائه، هى حكومة اسسها اللّه يوم اسس الدين، و شرع نظامها يوم انزل القرآن، و سمى خلفاءها يوم بعث محمداً بالرسالة، و هى حكومة غرس النبي بذرتها يوم غرس التوحيد، و تعاهدها يوم تعاهد الامة بالوصايا، و لست اقول إنه اتم العهد للخليفة الاول يوم الغدير، فهذا شيء قد لا يسيغه بعض القراء فقد تجاهله التأريخ من قبل هذا، و تجاهلته الأمة من قبل التأريخ، فقلبت النظام يوم انقلابها،

(١و٢) كتاب تحف العقول ص ٧٨.

واسقطت من القائمة اسماء لتثبت مكانها اسماء .

نحن لا نتنكر للتأريخ حين يثبت ما كان و حين ينفي مالم يمكن ، و لكننا ننكر عليه حين يمده المؤرخ من وراء العقيدة و حين يمده من وراء السياسة ، و كم لعبت السياسة فى التأريخ ادواراً فى عصوره الاولى ، و تبعتها العقيدة على الا ثر تمحو ما تمحو و تثبت ما تثبت ، ولو قدر البقاء للدعاية الامو ية الاولى بعد يوم الحسن (ع) و يوم الحرة لعفيَّ اثرهما في التأريخ .

لتبق هذه الحكومة المثالية امينة مكبوتة فى قلب الامام الصادق (ع) و ليسدل ستار الكتمان على عهد النبي الأخير، و لتتحول الخلافة الاسلامية ملكا عضوضاً بعد عهد الخلفاء الراشدين فان هذا لا يقلل من سعي الامام في تهذيب الامة ، و لا يضعف من دعوته الى انشاء المجتمع العادل .

العفة

يقول القدماء من علماء الاخلاق : الشهوة اول قوة يعرفها الانسان فى حياته ، والغضب هو القوة الثانية ، و يسمون الاولى قوة الجذب ، والثانية قوة الدفع ، وهم يؤسسون على هذا الترتب الوجودي بين القوتين نتيجة علمية لها اثرها في تهذيب الملكات واصلاحها . يقولون ان الشهوة اول قوة يعرفها الانسان ، فيجب ان تكون هي اول قوة يباشر الانسان في تهذيبها ، و يقررون ان اصلاح الملكات على هذا الترتيب اسرع في الا ثر واسهل في الانتاج .

و نحن نجد الامام الصادق (ع) فى بعض اخلاقياته يقدم ملكات قوة الشهوة على ملكات الغضب عند التعداد فقد سمعناه يصف لنا العدل فيقول : «اذا غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم» و يقول : «المؤمن من طاب مكسبه ، و حسنت خليقته وصحت سريرته ، و

انفق الفضل من ماله، وامسك الفضل من كلامه، و كفى الناس شره، وانصف الناس من نفسه»[1] و سمعناه يقول ما يشبه هذا في كلمات اخرى، فهل يصح لنا ان نعد هذا تقريرا من الامام لهذه النتيجة؟

ليس من الحق ذلك لان التقديم في التعداد غير وجوب التقديم في التهذيب. على ان الامام (ع) قد يقدم فروع الغضب في بعض اخلاقياته الاخرى.

الرذائل الخلقية جرائم فتاكة يجب دفعها عن النفس مهما امكن الدفع و سموم قاتلة يلزم الحذر منها ما امكن الحذر و جميع النقائص الخلقيه في هذا الحكم على السواء، ولا فرق بين القوي منها والضعيف، والاول والآخر، والحكمة في تقديم بعضها على البعض مختلفة جدا.

من الناس من يكون قوي الارادة حازم النفس، و من الخير لهذا الصنف من الناس ان يبتدىء باصلاح ملكاته القوية لان تأخيرها مظنة للفساد الخلق العام؛ هذا اذا لم يتمكن من اصلاح جميع ملكاته دفعة واحدة.

و من الناس من يكون ضعيف الارادة و اهن النفس ومن الصواب له ان يبتدىء باصلاح الضعيف من صفاته ليتمرّن به على جهاد القوي. و هذا الرأي و ان لم نجد فيه قولا صريحاً للامام الصادق (ع) الا ان النظرة الفاحصة في اقواله تؤكد لنا ان هذا خلاصة مذهبه في تهذيب الاخلاق.

قد تستبد الشهوة و تشذ و تتمرد على حكم العقل، و تسيطر على قوة العمل فتسمي هذه الشهوة المتمردة شراهة، و يكون تمردها هذا انحرافاً في الخلق، و يتكون من اهمال الغريزة و اعطائها الحرية الكاملة فتصنع ما تريد، و للسعي وراء الملذات التافهة والشهوات الرذيلة اثر بالغ في تنمية هذا الشذوذ و تربيته، فان حرية الشهوات تجعل الحر عبداً مملوكا «و مثل

---

١) الكافي الحديث ١٨ باب المؤمن و علاماته.

الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتي يقتله»[1]
والمراد من الدنيا في هذا الحديث هى شهواتها و ملذاتها.

و من البهائم قسم يشبه الانسان في الصورة، و يلحق به فى التعداد، وهو يناقضه في العمل و يباينة فى السلوك، يرتكب مالا ترتكبه البهيمة، و يعمل ما يخجل الانسانية، و يعلل اعماله بأن الانسان خلق ليكون حراً فليحطم كل قيد و ليكسر كل غل، وليثرفي وجه كل عادة و دين. الدين يقف في وجه الحريات فلينبذ، والعادات تجدد سلوك الانسان فلتسقط، و اخيراً هى عادات غريبة يجب على المتمدين ان يسايرها وفقا للتطور و نبذاً للقديم.

مساكين هؤلاء قد سرى الاستعمار الغربى حتى الى نزعاتهم، واثر المستعمرون حتى في مجاري تفكيرهم، والمستعمرون دهاة مكرة يعرفون كيف يغزون عقول الضعفاء من طريق الشهوة و مظاهر الحرية ليأخذوا من قلوبهم كما اخذوا من رقابهم و اموالهم، و أنّى لهؤلاء المساكين بأن ينقلوا عادات الغرب الى الشرق، و أنّى لهم أن يسايزوا المتمدين في كل ما يعمل، و اذا كان في الغرب ساقطون يعملون مثل هذه الاعمال، فان فيه عقلاء يترفعون عن الدنايا و يتنزهون عن الخسائس.

خلق الانسان ليكون حراً في الفكر حراً في الحقوق، لا ليعبد الشهوات باسم الحرية، و يقلد البهيمة باسم نزع التقليد، ولا اقول اكثر من هذا لانه لا يدخل فى منطقة الباحث الخلقي.

و هنا لون من افراط الشهوة، و لكنه لون احمق ـ إذا صح ان نصف الالوان بالحماقة ـ اقول هو لون احمق لانه مشوه الغاية، مضطرب النتيجة، و لكنه رغم جميع ذلك شائع جداً، ولا سيا في الطبقة المترفة التى تدعي

---

١) الكافي الحديث ٢٤ باب ذم الدنيا.

الرفعة، و تتولى رعاية الامور، و هذا اللون هو تعاطي المسكرات.

أرأيت الانسان بشحمه و لحمه يدخل الحانة ليهب عقله بلا ثمن، و يشتري الجنون منها بالمال؟ أرأيت من يساوم على مقدساته و مقدراته بهلة من الكأس و رشفة من العقار؟ أرأيت الانسان يتمعك كما يتمعك الحمار، و ينبح كما ينبح الكلب، ويعربد كما يعربد المجنون، ثم يدعي بعد ساعة انه من رؤوس العقلاء و من قادة المفكرين، و قد يتصدى لمهمات الاشياء و يتسلم مقاليد الامور؟

هو في نشوة من سكره، ولذة من خياله، و ماذا عليه اذا سلم ثمنها مضاعفاً من عقله، و ماله و بدنه و راحته و دينه، فانه يبيح جميع ذلك لنفسه، و ماذا عليه اذا تمتم في كلماته، و تخاذل في حركاته، فانها بعض نواحي اللذة، وأحد مظاهر الحرية التي ينشدها المتمدينون من امثاله، و ليكن منزله جحيماً مستعراً للأسرة، فان الحانة جنة له وارفة الظلال، و بعد فانه يريد أن يتخلص من ارتاب الحياة فليتخلص من كل شيء يتصل بها.

ساعة شهية يستقبل فيها احلامه و اوهامه ثم يفرغ ما في بطنه من خمر و ما في عقله من سكر، ثم يزاول اتعاب الحياة من جديد، وللعقلاء عليه أن ينظف ثيابه اذا علق بها شيء من اوساخ الطريق فماذا يريدون منه بعد ذلك. يتعلل المجانين بنظائر هذه العلل، و هل تكون علة الخيال إلا خيالا، و هل يعتذر عن الجنون بغير الجنون؟

ومن هؤلاء من يترفع عن الحانات، و لكنه يتخذ من داره ماخوراً خاصاً لنفسه و لندمائه، فيشرب و يشربون بمنظر من فتاه و بمسمع من فتاته، و لعل فتاه هو الساقي و لعل فتاته هى المغنية، إنه فن... و إنه تسلية نفس... يا للسوء والجفاء... و يا للدناءة الخلقية، و اذا رضى الانسان لنفسه بالنقيصة فكيف لا يقبل لعرضه بالدنية، و هل تبقي الخمرة فيه بقية من شعور ليميز بين الحسن والقبيح، والصحيح والفاسد...؟

عـد على الفقراء من أمتك ببعض هذا الاسراف ، و خصص شيئاً منه لمشاريع الخير، واحتفظ بالباقي ليومك العسير، وافعل ما يفعله الرجل العظيم في نفسه القوي في ارادته ، فستنال الذكر الجميل فى الدنيا اذا كنت ممن لا يثق بالجزاء في الآخرة ، كم رأيت من ثروة كبيرة دمرتها الخمرة ، و جاه عريض لعبت فيه الكأس ، و اذا كنت لم تشاهد شيئاً من هذا فانك قد سمعت منه الشيء الكثير.

و من هذه الالوان الحمقاء التي تغلب الغاية ، و تعكس النتيجة تظاهر الشباب بمظاهر الانوثة ، و تصنع الفتى كما تتصنع الفتاة . هذا هو الداء الفاتك و هذا هو السم القاتل ، ولو كان مختصاً بالشباب الفارغ الذي تعده الامة كلاً ثقيلا عليها لهان الامر و سهل الخطب ، لان هذا النوع من الناس عار على المجتمع ، و لكن ... و لكن الداء استعضل ، والنقص استفحل حتى عمّ الشباب المثقف الذي تعده البلاد ليومها الآتي ، و تدخره الامة لسعادتها المرجوة .

اقول ان الداء استفحل لانه يهدد مستقبل النهضة ،و يزعزع كيان الأمة ، و هل تنهض الامة بالمساحيق والمعاجين ؟ و هل ينهض بالامة شباب قتل الترف ما فيه من طموح و أمات السرف ما فيه من جد ، و أخمد التأنث ما في دمه من جذوة؟

إيه أيها الشاب الناهض . إيه يا عدة اليوم القريب ، غرة و طرة ، وخد وقد ، و سحر وفتون ، كل هذه الاشياء خلقت لغيرك أيها الناشىء العزيز، واذا كانت الطبيعة قد منحتك شيئاً منها فهي تؤهلك لمقام أسمى ، و محل أرفع ، لا لتجعلك متعة و فتنة .

خلقت لتكون محل إعجاب وثقة ، لا لتكون مثار عاطفة وحب ، و لتكون موضع إطراء و ثناء لا موضع غزل و تشبيب ... و أخيراً فقد خلقت لتكون رجلا .

هل تعلم كم في العيون التي ترنو اليك من نظرة خائنة، و كم في الابتسامات التى تستقبلك من ابتسامة مريبة، و كم في الناس الذين يحومون حولك من قلب عابث. وأخيراً فهل تعلم أنك أنت الذي تجني بذلك على حاضرك الزاهى و مستقبلك الباسم. والشباب زهرة العمر و مستهل الحياة فهو أثمن من أن يقتل بتصفيف الطرة و صقل الغرة، و ماذا يجنيه الشاب من تزجيج الحاجب و حلق الشارب غير اضاعة الوقت و تهديد المستقبل، فالى السعي يا رجل الغد القريب، و يا أمل الأمة المنشود. الى السعي فان الرجل بثقافته و أعماله والرجل بسيرته و سريرته والرجل بجهاده في ميادين الحياة.

ولو أردنا ان نستعرض جميع الفروع التى تتصل بافراط الشهوة لاحتجنا الى مجلد ضخم، والامام الصادق (ع) يذكر أكثر هذه الفروع في كلماته.

يشتد إفراط الشهوة فيتولد منه الحرص، و يقوى الحرص فيكون تهالكا في حب المال والجاه، و ينتج منه التكبر، والرياء، والتحاسد و. و. و..، والامام الصادق (ع) يعرض جميع هذه الأدواء عرضاً إجمالياً حين يقول: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)[١] أما الطمع الذي يثمر أكثر هذه النتائج فهو الذي يخرج الانسان من الايمان فى رأي الامام الصادق (ع)[٢] و هي المذلة التي يقبح بالمؤمن ان تكون فيه[٣].

و يقول (ع): (من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرته عند فراقها)[٤] الشهوات مصادر الآلام، و هى أسباب تؤدي الى التعب و فقد الراحة، فالشهوة سبب للألم قبل حصولها لأن تحصيل الرغبات يستدعي من الانسان طويلا من السعي و كثيراً من الجهد، و هى سبب للألم بعد وجودها لأن حصول الرغبة يثير الحرص في الانسان على طلب نظائرها فيسلبه الراحة و

١) كتاب الخصال للصدوق ص ١٥. ٢) الكافي الحديث ٤ باب الطمع. ٣) الحديث ١ من المصدر المتقدم. ٤) الكافي الحديث ١٦ باب حب الدنيا.

يفقده الطمأنينة، والشهوة سبب للألم بعد فراقها لأن فراق المألوف يبعث الأذى و يسبب الألم، و كلما كانت الرغبة أكثر ملائمة للانسان كان فراقها أشد ألماً في قلبه، وأكثر مضاضة في نفسه، و قد تعرض الامام الصادق (ع) لهذه الناحية في حديثه المتقدم، اما الناحية الاخرى فانه يقول فيها: (من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لاينال)[١].

و اذا توازنت قوة الشهوة في ميولها، و خضعت للعقل فيما يحكم، و اتبعت إرشاده فى كل ما يشير كانت عفة و حرية، والامام الصادق (ع) يسميها عفة حين يقول: (اي الاجتهاد أفضل من عفة بطن و فرج)[٢] و يسميها حرية حين يصف صاحب الدين فيقول: (و رفض الشهوات فصار حراً)[٣] ثم هو يحدد بها معنى الزهد بقوله: (أزهد الناس من ترك الحرام)[٤]، و حين يسأله بعض اصحابه عن الزهد فيقول له: (و يحك حرامها فتنكبه)[5] و هذه هي الدرجة الأولى من الزهد التي يشترك فيها عامة الناس، و للزهد درجات اخرى متفاوتة يختص بها قوم من المخلصين، أما الرهبانية وارهاق النفس بالتعذيب المتواصل و حرمانها من الحقوق المحترمة فهي أمور ليست من الزهد. بل و ليست من الدين في قليل ولا كثير.

القناعة والاقتصاد:

يحد الانسان من شهواته و رغباته فيضمن لنفسه الراحة من العناء، و يوفر عليها كثيراً من الزمن، و يقتصد في المعيشة و يعتدل في حب المال، و

---

١) الحديث ١٧ من المصدر المتقدم، و يقول المجلسي في كتاب مرآة العقول المراد بالأمل فى الحديث هو الأمل في البقاء في الدنيا والرجاء هو الرجاء للذاتها.

٢) جامع السعادات ص ٣١.١.

٣) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٣٧٩.

٤) الخصال للصدوق ص ١١ ٥) الكافي الحديث الاول باب معنى الزهد

يسمى الاعتدال في حب المال قناعة، و يسمى الاقتصاد في المعيشة رفقاً، و يقول فيه الامام الصادق (ع): (الرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال)[١] و يقول ايضاً: (ما زوي الرفق عن أهل بيت إلازوي عنهم الخير)[٢] و يقول: (ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر)[٣] و ليس بين البخل و بين الاقتصاد صلة، و لكن من البخلاء من يعلل عن امساكه بانه نوع من الاقتصاد الذي يأمر به العقل، و هى علة يتعلق بها المذنب و عذر يسوقه اليه شعوره بالجريمة، الاقتصاد تنظيم معيشة الانسان على ما يفرضه العقل الصحيح، و تتحمله المقدرة المالية فيعطى في موضع الاعطاء و يمسك في موضع الامساك بلا سرفٍ ولا تقتير، والبخل هو المنع في موضع وجوب الاعطاء. والتقتير في محل وجوب التوسعة، فأية صلة بين الخلقين.

الاقتصاد هو التوازن العادل و طرفاه هما الاسراف والتقتير، أما الكرم والايثار فهما لا ينافيان الاقتصاد اذا اقتضتهما الحكمة، و تحملتهما المقدرة، المقتصد سخي لانه (يؤدي واجب الشريعة، و واجب المروءة، و واجب العادة) والبخيل هو (الذي يمنع واحداً من هذه الواجبات).

والقناعة صفة تقارب الاقتصاد في الا ثر، و تقابله في المعنى، والفرق بينهما هو الفرق بين الخلق والسلوك ، القناعة ملكة في الانسان تكسبه الرضا بالقليل، والاكتفاء بمايسد الحاجة، والاقتصاد تنظيم المعيشة على ما تفرضه الحكمة و تدعو اليه الضرورة و أثر كل منهما اطمئنان النفس بما يحصل لها من القوت، والاقتصاد محتاج الى القناعة في وجوده، والقناعة محتاجة الى الاقتصاد في ظهورها في العمل، فيكون بين الوصفين تضامن في العمل واتحاد في الا ثر.

خلق الانسان و خلقت معه الحاجة و الوسائل التي يسد بها تلك الحاجة، لابد للانسان من القوت لانه يريد ان يعيش ولابد له من الملبس

١) الكافي الحديث ٩ باب الرفق ٢) الحديث ٨ من المصدر المتقدم ٣) جامع السعادات ص ٣٦١.

لانه يريد ان يجتمع ، ولابد له من المسكن لانه يريد ان يستقل ، اذن فالانسان محتاج الى هذه الضرورات و الى امثالها من وسائل الحياة ، و هو محتاج الى مال يبلغه تلك الغايات ، و الى مكسب يوصله الى المال ، و كيف يحصل على الكسب بغير الاجتماع .

حلقات من الحاجة يتصل بعضها ببعض ، ولا ينفك بعضها عن بعض ، والمال بعض هذه الحلقات المتصلة ، ولا ينكر احد أهميته في الحياة ، و لكن الشيء الذي يستنكره العقل أن يجعل المال هو الغاية الاولى والاخيرة تحطم في سبيله كل غاية ، و تستخدم في تحصيله كل وسيلة، و ينبذ كل تشريع و نظام .

النفس ميالة الى الشهوات ، والمال يسهل لها طريق الحصول على هذه الغاية ، هذا هو مبدأ الشر و هذه هي جرثومة الداء ، هذا هو الذي يفسر لنا المبالغة التي نجدها في ذم المال والتحذير منه فان التخلص من الادواء التي يسببها جمع المال عسير جدا .

(ان الشيطان يدبر ابن آدم فى كل شيء ، فاذا أعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته)[1] هذه كلمة يقولها الامام الصادق (ع) في التحذير من المال و بالاحرى في التحذير من النقائص التي يسببها جمع المال ، الشيطان يجثم لابن آدم عند المال اذا اعياه في كل شيء ، اذن فالمال أعظم شباك الشيطان واكبر مصائده ، والانسان مفتقر الى المال لان الحاجة تدعوه الى طلبه ، و اذن فلابد أن يلتقي الخصمان على مجزرة المال ، ولابد أن يغلب المتيقظ منهما الغافل ، و يظفر الجاد بالهازل ، فان المال باب الشهوات و مفتاح المطامع ، والانسان رهين اطماعه وعبد شهواته ، و هكذا يستعبد الحر و يبلغ الشيطان أمنيته من عدوه فيأخذ برقبته رضي الانسان بهذه النتيجة أم أباها .

---

١) اصول كافى فى الحديث ٤ باب حب الدنيا.

و للشريعة الاسلامية نظرة معتدلة الى المال ، فهو خادم أمين يبلغ به الانسان حاجته ، و للخادم الامين منزلته وله مقامه ، على ان يبقى السيدسيداً، و يظل العبد عبداً ، والمال وسيلة محبوبة توصل الانسان الى الخير، و تحصل له السعادة و وسيلة الخيرخير،وسبب السعادة سعادة، على ان تبقى الوسيلة وسيلة والغاية غاية ، و اما تحصيل المال بالسرقة والخيانة ، والظلم في المعاملة والتعدي على الحقوق . و .. فهو اشد المحظورات عند الشرع والعقل ، و من اعظم المنكرات في علم الاخلاق، لانه يميت الغاية قبل الحصول على الوسيلة ، و ينقض الاساس قبل ان يتم البناء ، و لست بحاجة الى ذكر الشواهد على ذلك من كلمات الامام الصادق (ع) لان تحريم هذه الاشياء من ضروريات الدين الاسلامي .

و لست اذكر الربا والمرابين إلا بخير، فان الربا اختلاس يبيحه النظام المدنى ، والمرابين سراق يحترمهم القانون ، و ماذا على المسلم اذا أكل الربا هنيئا مادام القانون يثبت له هذا التجاوز، و ما دامت المعاملات الربوية شائعة بين الناس ، فليغتصب أموال الناس باسم النظام ، و ليموه على جريمته باسم التأويل ، و ليكن بعد هذا محارباً لله و لرسوله في رأي القرآن ، و ليكن الربا اشد حرمة من الزنا في رأي الامام الصادق (ع) ، فانه يتأول قبل ان يرتكب ، و ليس عليه بعد التأويل شيء... و بعد فان تحريم الربا فكرة يجب على المسلم ان يعترف بها فى مقام الاعتقاد ، و ليس عليه ان يطبقها في مقام العمل .

والفقير قد يكون آمناً من اكثر هذه الجرائم التى تتعلق بالمال ، و لكنه قد يتعرض لما هو اشد منها جرما واكبر اثما.

قد يحمله الاعواز على ان يسرق، و قد يدعوه الفقر الى ان يخون ، او يستدين ثم ينكر، و قد ...، و قد ، والفقير الى جانب اليأس اقرب منه الى طرف الرجاء ، و الى الجزع اكثر ميلا منه الى الصبر، واكثر ما يقترفه من

الذنوب نتيجة ذلك اليأس و ثمرة ذلك الجزع ، واحاديث الأئمة من اهل البيت (ع) قد تنوعت للفقير بأنواع البشائر لتحيي فيه ميت الرجاء ، و تبعث فى قلبه روح الامل ، ثم امرته بالكسب و رغبته فى الاقتصاد ، وللامام الصادق (ع) كلمات تتصل بهذا البحث يجب ان تتخذ قواعد عامة في باب الاقتصاد ، و من هذه الكلمات قوله :

«لا تكسل في معيشتك فتكون كلا على غيرك »[١]

«ضمنت لمن اقتصد ان لا يفتقر»[٢]

« انظرمن هو دونك في المقدرة ، ولا تنظر الى من هو فوقك »[٣]

« السرف امر يبغضه اللّه حتى طرحك النواة فانها تصلح لشيء » [٤].

«من كان رفيقا فى امره نال ما يريد من الناس »[٥].

«تَعَوَّذوا باللّه من غلبة الدين و غلبة الرجال » [٦].

الشجاعة

ابرز صفات الرجولة ، واعز ملكاتها ، و اكثرها اثراً في تهذيب الاخلاق ، و تنظيم الاعمال ، لان تهذيب الملكات جهاد ، والمحافظة على الملكات المهذبة جهاد آخر، والمجاهد مخذول اذا لم تناصره الشجاعة ولم يرافقه الصبر، و بالثبات تنجح المساعي و تبلغ المقاصد ، وتتم الاعمال ، والشجاعة بنفسها احدى الملكات التي لا تحصل إلا بالمجاهدة ، لانها توازن في قوة الغضب ، و كيف يتوازن الغضب من غير كفاح ، و كيف ترد عاديته بغير

---

١) الكافي الحديث ٩ باب كراهية الكسل من كتاب المعيشة .

٢) و ٣) جامع السعادات ص ٣٦١ .

٤) تحف العقول ص ٨٩ .

٥) الكافي الحديث ١٦ باب الرفق .

٦) الكافي الحديث الاول باب الدين .

جهاد، و اذن فلابد للانسان من قوة اخرى تضرب الغضب بالغضب و تمزج اللين بالقوة لتركب من المجموع مزيجا معتدلا يسمى بالشجاعة، و تلك القوة هي الحكمة، و جنديها المكافح هو قوة الارادة.

(الغضب ممحقة لقلب الحكيم) بهذه الكلمة القصيرة يصف الامام الصادق (ع) آثار الغضب ثم يقول بعدها: (من لم يملك غضبه لم يملك عقله)[١] الحكمة دليل الخير ورائد الاصلاح، و قلب الحكيم مصدر هذه الدلالة و مشرق ذلك النور و لكن ماذا يجدي هذا الدليل إذا هاج الغضب، و ماذا ينفع هذا إذا احتدم الغيظ.

قد يسترشد الاعمى فيرشد، و قد يستدل الحائر فيهتدي والغاضب لا يقبل الارشاد ولا يسمع النصح، لان الغضب جنون والمجنون لا يسمع نصح الناصحين، دليل هذه الدعوى ظاهر في عيني الغاضب، و على تجاعيد وجهه، واحتباس انفاسه، و تزاحم الكلمات على شفتيه، ثم هو قد يعتذر بعد ذلك عن اعماله بأنه غاضب، اذن فهو يعترف على نفسه بالجنون (و من لم يملك غضبه لم يملك عقله).

و تهذيب الغضب يكون قبل حصوله، و طريقه هو التفكير في اسباب الغضب والتأمل في عواقبه و ما يجره على النفس و على الغير من اضرار واخطار. و ليس من الصلاح ان يتعرض المرشد للانسان في ساعة غضبه، لانه قد يضيف بارشاده الى الغضب غضبا و يجمع الى النار حطبا، و لكن من الخير ان يتمهله في النتيجة، و ان يصرفه عن الفكرة صرفا تدريجياً، لان الغضب ثورة في دم القلب كما يقولون و بالتماهل و صرف الفكر تسكن هذه الثورة و يخلد الانسان الى السكون، و يقول بعض علماء النفس (اذا غضبت فعد العشرة) و هو يشير الى هذا المعنى لان تعداد العشرة يستدعي فرصة ولو قصيرة و يسبب تغيراً في وجهة النظر ولو قليلا.

---

١) الكافي الحديث ١٣ باب الغضب.

(الغضب مفتاح كل شر)[1] يزول الغضب عن الانسان ببطء او بسرعة، و يبقي في النفس ما تبقى النار في الهشيم، و اذا خلفت النار اثرا واحدا او اثرين، فان الغضب يبقي آثاراً كثيرة لا يضبطها حساب، فالحقد، وحب الانتقام والقسوة و سوء الخلق، والبغي، والعجب، والكبر، و... و... كل هذه من ثمرات التهور والافراط في قوة الغضب.

و يقابله من جانب التفريط الجبن، و اذا كان التهور خروجا عن حدود الانسانية الى حد الجنون، فان الجبن ضعة في صفات الرجولة الى حد السقوط.

يعيش الجبان في جو من الاضطراب، و يخلق لنفسه مشاكل من الذعر. لانه يفقد أعز شيئين يحتاج اليهما الانسان، وهما: الثقة بالنفس، وقوة الارادة، و عدوه الاول والاخير: الخوف والشعور بالنقص، ولو فكر قليلا لعلم ان جميع ذلك من نسيج الوهم، و ان الاحتياط الذي يتخذه لنفسه هو أشد ظلمة من الواقع الذي يحذر منه، لان عاقبة هذا الخوف معلومة الخطر أما الواقع الذي يفر منه فهو خطر محتمل، ويحدثنا التاريخ ان كثيرا من الجبناء قتلهم الخوف من حيث انهم يجتنبون مواضع الخوف.

وللجبن أثر سيء على الصفات والاعمال، فهو يطبع الاخلاق بطابع الذعر، و يسم الاعمال بسمة التردد، و قد يكون من المستحيل على الجبان ان يتم عملا واحداً صحيحا حتى في هذه الاعمال التي يتحصن بها من الخوف، لانه ضعيف النفس أمام وهمه، ضعيف الارادة امام خطواته. ورذائل الجبن لا تقل عدداً عن نقائص التهور، و من أعظمها تأثيراً على الانسان الخوف من غير وجود سبب يوجب الخوف، والعجز عن احتمال ما يجب تحمله من الامور، وضعة النفس وقصور الهمة، وفقدان الغيرة.

اما الشجاعة فهي أول فضيلة للقوة الغضبية، ولها مظهران: ثبات

---

١) الحديث الثالث من المصدر المتقدم.

في مقام الدفاع . و اقدام في محل الجهاد .

والشجاعة لا تتميز بلون واحد ، ولاتختص بسمة خاصة ، فالعضب للحق شجاعة لانه مما يأمر به العقل ، والحلم عن جهل الجاهل شجاعة لانه مما يدعو اليه الرشد والثورة على الباطل شجاعة لانها مما تقتضيها الحكمة ، يتقدم الشجاع فى موضع التقدم ، و يتأخر في محل التأخر ، و هو في كلتا الحالتين شجاع لانه ثابت القلب أمام المخاطر ، شجاع لانه يدبر حركاته بالحكمة . و يقسمها المتأخرون من الخلقيين الى شجاعة بدنية ، و شجاعة ادبية .

الشجاعة البدنية :

(جبلت الشجاعة على ثلاث طبائع ، لكل واحدة منهن فضيلة ليست للاخرى : السخاء بالنفس ، والأنفة من الذل ، و طلب الذكر ، فاذا تكاملت في الشجاع كان البطل الذي لايقام لسبيله والموسوم بالاقدام في عصره ، و اذا تفاضلت فيه بعضها على بعض كانت شجاعته في ذلك الذي تفاضلت فيه اكثر واشد اقداما)[١] .

عناصر الشجاعة ثلاثة على مايقرره الامام الصادق (ع) في هذا الحديث ، يجب توفرها في الشخص ليسمى شجاعاً بالاستحقاق ، والذي يفقد واحدا منها لا يستحق هذه الصفة لانه يفقد ركناً من اركان الشجاعة .

(١) السخاء بالنفس ، وهذا هو العنصر الاول في الاهمية ايضا ، و اذا عرفنا ان السخاء بالشيء هو بذله عن طيب نفس علمنا الذي يتكلف بذل نفسه لبعض الدواعي لا يستحق ان يسمى شجاعا ، و ان اجتمعت فيه العناصر الاخرى للشجاعة ولكن قد يتكرر هذا التكلف من الانسان حتى يصبح معتاداً عليه ، و يغود سخيا و يستحق صفة الشجاعة اذا استكمل بقية

١) كتاب تحف العقول ص ٧٨ .

عناصرها .

(٢) و (٣) الإباء ، والشمم ، وهما خلقان نفسيان متلازمان فى الاكثر، واثر الاباء احتفاظ الانسان بكرامة نفسه وترفعه عن الدني من الامور، واثر الشمم ، طلب الرفعة والتوجه الى المراتب الجليلة ، وهما قريبان في المعنى من عزة النفس ، وعلو الهمة ، وسنذكرهما فيما يأتي.وهذه العناصر الثلاثة المتقدمة قد تجتمع فى الشخص بأرقى مراتبها فيصفه الامام (ع) بالشجاع الكامل وبالبطل الذي لا يقام لسبيله.وقد يضعف فيه بعض العناصر فيفقد من الشجاعة الكاملة بمقدار ذلك النقص .

اما الشرط الاول للشجاعة و هو اخضاع قوة الغضب لقوة العقل فيقول فيه : ثلاثة تعقب مكروها . حملة البطل في الحرب في غير فرصة ، و ان رزق الظفر [1].النفس أثمن شيء يجده الانسان ، و نفس البطل أعز ذخيرة يحتفظ بها ليومها الاكبر، فيجب عليه ان لا يخاطر بهذه النفس الا اذا أحرز الفرصة ووثق بالفوز، والا فانه يبيع نفسه من غير ثمن ، والعقل يعده مجازفاً وان رزق النصر، لأن نصره هذا وليد المصادفة ، والمصادفات لا تدخل تحت مقياس .

والشجاعة لا تختص بالجندى يقدم نفسه فداء للدين ، أو يبذل دمه لنصرة الوطن فان للشجاعة البدنية أنواعا كثيرة ، لأن شدائد الحياة لا تدخل تحت حساب ، و ملاقاة هذه الاهوال شجاعة متى كان الاقدام فيها باشارة العقل وارشاده فالشجاعة تكون في الجندي و في القائد ، والطبيب و رجال الانقاذ على حد سواء اذا اجتمعت فى هؤلاء عناصر الشجاعة التى ذكرها الامام في حديثه السابق .

الشجاعة الادبية

قد يصوب الانسان رأياً من الآراء أو يعتنق مبدءاً من المبادئ ،

---

١) تحف العقول ص ٧٨ .

فيعتقد أنه الحق، ثم يجهر بهذه العقيدة وان كلفه الجهر بها غالياً، و أدى ثمنها مضاعفاً فيسمى جهره هذا شجاعة أدبية عند الأدباء المعاصرين.

والشجاعة الأدبية خطة كبيرة يقوم عليها أساس نشر الحق و إعلان المبادئ السامية، و هي خطة المصلحين العظماء الذين اضطهدوا فى اسعاد البشر و ما توا لاحيائهم، والذين تنكرت لهم البشرية أحياءاًثم خلدت لهم الذكر أمواتاً، و من هؤلاء جنود مجهولون خدموا الناس فأنكرهم الناس وجهلهم التاريخ، ولكن أعمالهم مدونة فى سجل هو أرفع من التأريخ، و اذا شكر الحق أعمالهم، و رفع لهم منازلهم فماذا يصنعون بتقدير الناس.

والشريعة الاسلامية تجعل هذا المبدأ من أهم فروضها، واكبر واجباتها و تسميه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، و يقول الامام الصادق (ع) في بيان وجوبه: (و يل لقوم لا يدينون اللّه بالامر بالمعروف و النهي عن المنكر)[1] و يقول في الحث عليه: (مروا بالمعروف و انهوا عن المنكر، فان الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لم يقربا أجلا و لم يباعدا رزقا)[2].

مرت على الامام الصادق (ع) ايام مختلفة تبدلت فيها سياسات و تقلبت فيها أمور، و قد شاهد الامام (ع) فيها أنواعاً من الحكم، و كانت الأيام تبتسم له مرة و تعبس مرة أخرى، و كان الحكم يقسو تارة، و يلين تارة، والامام بين هذه الاحوال ينتهز الفرصة لنفسه ولأصحابه فى نشر الدعوة الى المذهب، فيأمرهم بالاعلان حين تبسم لهم الايام، ويحذرهم عنه حين تعبس، وهذا الحذر والتكتم أثران من آثار التقية التي عرفت فى المذهب الجعفري، والتي شرعها اللّه فى كتابه.

واسرف بعض المذاهب التى تنتسب الى الشيعة فى التكتم بعقائده

---

١) الكافي الحديث ٤ باب الامر بالمعروف.

٢) الوسائل الحديث ٣٤ باب و جوب الامر بالمعروف.

وأحكامه حتى بعد ارتفاع الشدة وانتهاء ايام الجور، و تمسك المذهب الاسماعيلي بذلك مشهور فى التاريخ، ولايضاح معنى التقية و بيان اسرارها و أحكامها كتب اخرى و باحثون آخرون، والذي نقوله هنا: ان الامر بالمعروف فى رأي الامام الصادق يكون واجباً ومن أهم الواجبات حين يكون موجباً لتأييد الحق و تعزيز دعوته، و هو حرام اذا عرض بالدماء الزكية، و خاطر بالنفوس المحترمة، و هو من أشد المحرمات حين يكون سبباً لاهانة الحق و اذلاله، و لذلك فهو يقول: (المذيع علينا كالشاهر سيفه علينا، رحم اللّه عبداً سمع بمكنون علمنا فدفنه تحت قدمه)[1] و يقول ايضا: (من روى علينا حديثا فهو ممن قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأ)[2] هكذا يأمر أصحابه بالكتمان فى أيام الشدة:

عزة النفس، و علو الهمة

معرفة الانسان بقيمته تستدعي طو يلا من التأمل، و كثيراً من التيقظ والانتباه، فقد يسرف به حب الذات فيعطي نفسه اكثر مما تستحق من القيمة، و قد يسف به الصغار فيظلمها أقبح الظلم، و عزة النفس تتطلب من الانسان شيئين:

١ـ ان يحدد قيمة نفسه تحديداً صحيحا.

٢ـ ان يحدد منازل من يتصل بهم من الاصدقاء، و قيمة ما يباشره من الاعمال، فيضع نفسه في موضعها الذي يليق بها، و يتصل بمن يناسبه من الاصدقاء و يباشر ما يليق بشأنه من الاعمال، والتعدي عن ذلك اذلال للنفس وتعريض بكرامتها الى الانتقاص، و فى ذلك يقول الامام الصادق (ع): (ان اللّه فوض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوض اليه ان يكون ذليلا)[3]

١) و ٢) تحف العقول ص ٥٧.

٣) فروع الكافي الحديث ١ باب كراهة التعرض لما لا يطيق.

و يقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» و سأله الراوي عن معنى اذلاله لنفسه فقال: «يدخل فيما يعتذر منه»[١].

اما علو الهمة فهو استشراف الانسان الى المعالي، و نزوعه الى الرفعة والسمو.

خلق الانسان مجبولا على حب السعادة، والحصول على الكمال، و لكن الوصول الى هذه الغاية دونه عقبات و مصاعب، و لذلك فالذين يجتهدون فى طلب الكمال قليلون، والذين يصلون الى الغاية أقل هذا القليل، و علو الهمة وحده هو الذي يسهل هذه العقبات، و يذلل هذه المصاعب.

أما قاصر الهمة فقد يقعد به العجز عن السعي و قد يرجع الى الوراء من منتصف الطريق و فى ذلك يقول الامام الصادق (ع) «ثلاثة يحجزن المرء عن طلب المعالي: قصر الهمة، و قلة الحيلة، و ضعف الرأي»[٢].

كثيرون اولئك الذين يفهمون من عزة النفس معنى الكبرياء، و من علو الهمة معنى العظمة الزائفة، و هي نظرة خاطئة ترسل من غير تدبر، عزة النفس ترفعها عن الدنايا والنقائص، و علو الهمة هو طموح الانسان الى شريف الاعمال والاخلاق، و هما أساسان لرقي الفرد ورقي الامة.

يقدم الانسان غيره عند تساوي الحقوق فيسمى مؤثراً، و يتسامح في بعض شؤونه فيكون متواضعا، و يتغاضى عن جهل الجاهل فيسمى حليما وهو عزيز النفس عالي الهمة في جميع ذلك، من عزة النفس ان يؤثر في موضع الايثار، و من علو الهمة ان يحلم في موضع الحلم، و علو الهمة أداة ينال بها الانسان مالا يناله بالثروة، و يدرك بها مالا يدركه بالمناصب، المنصب عادية والثروة زائلة، و علو الهمة ثروة نفسية باقية ما بقي الانسان، و تظل آثارها باقية بعد موت الانسان.

---

١) الحديث ٥ من الباب المتقدم.

٢) تحف العقول ص ٧٧.

أنظر الى من هو فوقك في الكمال، وثق بنفسك قبل المسير، و اذا سرت فضع قدمك بتثبت وانقله بحزم فستجد اللذة عند أول قدم تضعها، و ستفوز بعد قليل بالغاية، ستعترضك فى الطريق اشباح و أوهام يسميها العامة من الناس مصاعب فلا تعرها التفاتا، ولا تلق لها بالا، فان السلم لابد له من المدارج. تقدم ولو خطوة فانها تمهد سبيل الخطوة الثانية ولا تقف في مسيرك الا حين يأمرك العقل بالأناة فان الوقوف تضييع للفرصة و تبذير في الزمن، و لتكن العقبات بعد ذلك ما كانت، فان العقبات لا تصد الحر عن قصده، ولا تضعف من ارادته «ومن انتظر بمعالجة الفرصة مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصته لان من شأن الايام السلب و سبيل الزمن الفوت»[1].

الاناة والحلم:

كل عمل يباشره الانسان بارادته واختياره لا بدله من غاية ولا بدله من طريق يوصله الى تلك الغاية، والانسان الكامل هو الذي يفكر فى الغاية قبل الشروع فى العمل فلعل هذه الغاية غير شريفة فى نظر العقل و ان وافقت هوى في القلب، ولعلها لا تناسب علو الهمة و ان كانت شريفة فى نفسها فان بعض الغايات يعد شريفاً و لكنه يحدد من قيمة الرجل العظيم، و لعل الاستيلاء على تلك الغاية يزاحم حقوق آخرين من افراد الانسان فيكون في عمله هذا ظالماً او مستأثرا والعظيم أعلى همة من أن يظلم او يستأثر.

ثم ينظر الى الطريق فعلّها أبعد سبيل الى الغاية فتضيع عليه طو يلا من الزمن، و ليس عليه أن تكون أسهل الوسائل فان صعو بة الجهاد تضاعف لذة الانتصار.

تهون علينا فى المعالي نفوسنا
و من خطب الحسناء لم يغله المهر

---

١) تحف العقول ص٩٣.

على الانسان أن يتفكر فى أسباب النجاح قبل الشروع فى العمل، و عليه ان يتثبت في تطبيقها حين العمل، و جميع هذا يستدعي أناة فى الطلب و ترو يا فى الفكر لئلا يخفق في السعى و يبعد عن المقصود، و في ذلك يقول الامام الصادق عليه السلام: (قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل ان تقع فيه فتندم)[1]. و يقول ايضاً: (العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً)[2].

و يقول بعض الحكماء: (الحلم والأناة توأمان نتيجتهما علوالهمة).

الأناة:هي التثبت فى انجاز العمل حذراً من الاخفاق، والحلم هو التثبت فى امضاء القدرة عند الغضب ترفعاً عن الظلم او رغبة في التكرم والصفح، فالأناة والحلم توأمان متشابهان كما يقول هذا الحكيم، و اما ان نتيجتهما علو الهمة فهو حكم ليس بامكاننا أن نصدقه فى جميع الناس.

من الناس من يكتسب علوالهمة بالحلم والاناة، و من الناس من يكتسب الحلم والاناة بعلو الهمة، والحكم الذى لا يقبل الشك ان الحلم والاناة يصحبان علو الهمة صحبة دائمة.

و يقول (ع): (من لم تكن فيه ثلاث خصال لم ينفعه الايمان: حلم يرد به جهل الجاهل، و ورع يحجزه عن المحارم.وخلق يداري به الناس)[3].

الحلم مناعة فى النفس يتحصن بها الانسان عند هجوم الغضب و حب الانتقام، والحلم عدة الانسان في اشد مزالقه واخطر حالا ته.

يجهل الجاهل فيحلم عنه العاقل فيكون حلمه هذا تحديداً لكبرياء النفس، واشادة بعظمتها فى الصفات و ترفعاً عن مقابلة الدنيّ من الخصال و درساً عالياً لخصمه فى الاخلاق، و تحديداً لجهل ذلك الخِصم عن الزيادة، و

---

١) تحف العقول ص ٧٤.

٢) تحف العقول ص ٨٨.

٣) تحف العقول ص ٧٩.

فى التأريخ والامثال أناس خلدهم الحلم ليكونوا مثالا عاليا للناس.

والعرب القدماء يسودون الحليم و يذكرون في سبب ذلك: ان الحليم سيد على نفسه و من ساد على نفسه كان جديراً بالسيادة على غيره. و يقول الامام الصادق (ع): «لا يعد العاقل عاقلا حتى يستكمل ثلاثاً: اعطاء الحق من نفسه على حال الرضا والغضب، و أن يرضى للناس ما يرضى لنفسه، واستعمال الحلم عند العثرة»[1]. ويقول: «كفى بالحلم ناصراً، و اذا لم تكن حليما فتحلّم»[2] و التحلم هوالتشبه بالحلماء فى التغاضي عن الهفوات، والترفع عن المقابلة والتكلف لتهدئة الغضب، و يسمى فى لسان الشريعة «كظم الغيظ»، و أثر التحلم رد عادية الغضب بعد الثورة، و أثر الحلم منع النفس عن الغضب، و صدها عن الانتقام اذا غضبت، فالتحلم أقل شأناً من الحلم، و لكن الاستمرار عليه يكسب الانسان صفة الحلم.

الكبرياء والتواضع:

يتقابل الهران المتنافسان، فينتفش كل واحد منهما و ينتفخ و يتطاول ويرتفع ليثبت لخصمه انه اعظم قدرة واشد صولة فاذا وقعت المصادمة خفيت المظاهر الكاذبة و ظهرت الحقائق و شغل الخصمان بالواقع عن الخيال، وكانت الغلبة للقوة، فجرثومة التكبر ثابتة في غريزة الحيوان والانسان، و اذا كان بينهما فرق من جهة فهو ان الحيوان يتخذ الكبر سلاحا عند لقاء العدو والانسان العاقل ينتفش وينتفخ لغير سبب يوجب ذلك، فالحيوان اعرف من اخيه بمواضع التكبر.

---

١) تحف العقول ص ٧٧.

٢) الكافي الحديث ٦ باب الحلم.

«مـا مـن احدٍ يتيه إلا من ذلّةٍ يجدها في نفسه»[1] لماذا يتكبر الانسان اذا كـان كـبيـراً في نفسه، و لماذا يتعاظم اذا كان عظيما في صفاته، انه ـ من دون ريـب ـ يجد في نـفـسه نـقـصاً محسوساً وضعة بيّنة، وهو يريد ان يتم ذلك الـنـقـص و يسد ذلك الفراغ بهذه العظمة المكذو بة، و لكنه بعمله هذا يضيف الى نـقـصه الاول نقصاً اكبر منه، و يضم الى ضعته الاولى ضعة اشد منه و اذا كـان حـب الـذات يحجب عينيه عن ان تبصر شيئاً من ذلك فان للناس الآخرين عيوناً غير محجوبة. و لعل فى المساكين الذين يترفع عن القرب منهم و يأنف من النظر الى أسمالهم من هو أشرف منه نفساً و أزكى عملاً و أطيب ذكراً.

و يـتـحدث الامام الصادق عن المتكبر أيضاً فيقول: «لا يزال اعظم الـنـاس في نـفـسه واصغر الناس فى أعين الناس»[2] يعيش المتكبر ثقيل الظل على الـنـاس جميـعـا حتى على المـتـكبرين من نظرائه، واذا شك فى ذلك فلينظر مـقـت الناس للـمـتـكبرين الآخرين، و ليتأمل فى نفسه فانه يجدها في عداد الماقتين لهم أيضا، و ليجعل ذلك مقياساً له ان كان ممن يعقل او ممن يحب أن يـكـون عـاقلا، و إلا فليفقد العزة من حيث انه يريد العزة، و من نازع اللّه فى ردائه فهو جدير بهذه العاقبة.

لـيثق ان الناس لا يهمهم من امره قليل ولا كثير، اما هؤلاء المتملقون الـذين يظهرون له الانقياد والخضوع فهم دهاة مكرة، يقتنصون من ماله بهذا الخضـوع ثم يـسـخرون من عقله و من كبريائه، ولو تعاهد المسكين نفسه بغير طريق التكبر لبلغ العظمة النفسية الصحيحة ببعض هذا العناء.

الـكبر مـبدأ سلسلة من الجرائم، و فاتحة سجل من الآثام، واية جريمة خـلـقـيـة او قـانـونـيـة يتوقف المتكبر عن اقترافها اذا هي وافقت امنيته، واية فـضيلة يسعى الى اكتسابها اذا كانت تصادم رغبته او تزاحم سلوكه، و بذرة

---

١) الكافي الحديث ١٧ باب الكبر.

٢) الحديث ١٦ من المصدر نفسه.

الكبر ليست محدودة النتائج، ولا مأمونة العاقبة، فقد تثمر اشد أنواع الكبر و توصل الى أبعد مراحله اذا صادفت نفسا مرنة و جهلا محفزاً.

يتكبر الانسان على أخيه الانسان لانه فقير فيجره ذلك الى التكبر على اللّه و قد يجره الى الجحود والكفر و هي المرحلة الاخيرة من الكبر، و يقول فيها الامام الصادق (ع) «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر»[1] والكبر هو الخلق النفساني الذي يتصف به المتكبر، والتكبر هو الاعمال التي تنشأ عن هذه الصفة النفسانية، و كما ان الكبر سبب لسقوط الفرد فى الاخلاق فانه سبب لانحطاط الامة فى الحضارة، لان المتكبر يجد نفسه فوق كل أحد، و يرى ان مصلحته الخاصة مقدمة على كل شيء، و هو يحقد على الغير اذا أنكر عليه ذلك. فاذا شاع التكبر فى الامة نشأت الضغائن بين الافراد، و دبّ الخلاف بين الجنود، و بعدت الشقة بين القادة، وأصبحت الامة أمما متعددة بتعدد المتكبرين من أبنائها، و تفرقت كلمتها الى غير اجتماع.

يغالط المتكبر اذا ادعى أنه يحترم القانون، لأنه يعتقد ان ارادته أسمى من جميع مواده و فصوله، و لعله يحترم النظام حين يكون وسيلة لحفظ حقوقه الخاصة، و لعله يرى ان واجب النظام ذلك لا غير.

والفضيلة التى تقابل الكبر هى التواضع، و هي ان يحترم للناس حقوقهم ويعرف لهم منازلهم ومراتبهم، و أن يحتفظ لنفسه بمنزلتها الخاصة، فلا يجحد فضيلة لفاضل، ولا يحتقر شرفاً لشريف، ولا يدعي لنفسه صفة كاذبة، فان في الحقيقة غنى عن الخيال، و ليس عليه وراء هذا ان يتنازل عن شيء من حقوقه لأحد من الناس.

من التواضع الممدوح ان يتسامح الانسان في بعض الحقوق التي لا يضر فواتها بشرفه، و لكنه ليس بواجب. اما الحقوق الواجبة للنفس والتي

١) الكافى الحديث ٧ باب الكبر.

يكون فوتها قادحاً في الشرف و نقصاً في المروءة فان التنازل عنها ذلة يجب على الانسان ان يتنزه عنها ، و هي الرذيلة الثانية التي تقابل التواضع من جانب التفريط .

(من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، و ان تسلم على من تلقى ، وأن تترك المراء و ان كنت محقاً ، ولا تحب أن تحمد بالتقوى)[١] و هذا الحديث يعرض أمامنا نوعين من التواضع :

١ـ التواضع في السلوك والأعمال و هوعلاج التكبر.

٢ـ التواضع في النفس و هويقابل صفة الكبر فيها ، و علامة هذا التواضع أن لايحب أن يحمدبالتقوى. قد يستعظم الانسان نفسه ، ، أو يستعظم صفة من صفاتها ، فيسمى معجباً ، و يتطور العجب فيقيس المعجب نفسه بغيره ، و يحكم لنفسه بالتفضيل و يطمئن الى هذا الحكم فيكون كبراً ، فالكبر تطور في العجب ، و قد ينشأ الكبر أو التكبر من أسباب نفسية أخرى ، ولكن العجب أهم مصادره و أعظم ينابيعه ، والعلاج الصحيح لهذا الداء أن تستأصل البذرة ، و أن تقتل الجرثومة و علامة ذلك : (أن لا تحب أن تحمد بالتقوى) .

الصدق ، و الكذب

و صفان يقعان على القول ، و يضافان الى القائل ، و قد يتعديان الى غير القول من الاعمال والصفات ، والباحث الخلقي يريد منها الخلقين النفسانيين الذين يصدر عنهما ذلك السلوك .

الصدق و الكذب صفتان للقائل أو للقول ، و لكن الاعتياد عليهما يغرس في النفس ملكة الصدق أو الكذب ، و هي التي يقصدها الخلقي في بحثه.

١) الكافي الحديث ٦ باب التواضع .

و اذا اختلف علماء العربية في تعريف الصدق و الكذب فلا ينبغي وقوع مثل هذا الاختلاف بين علماء الاخلاق لان غاية العالم الخلقي أن يصل الانسان الى الكمال، و الكمال فى القول أن يطابق الحقيقة والاعتقاد معاً، و

لأن الاعتدال الذي يبحث عنه علم الاخلاق هو خضوع الانسان في سلوكه للحكمة، والحكمة هي: (معرفة حقائق الاشياء على ماهي عليه) فالصدق الذي يبحث عنه الخلقي، والذي يعده من رؤوس الفضائل لابد له من مطابقة الواقع، ولابد له من مطابقة الاعتقاد.

قد يعتقد الانسان بشيء و هو مخطىء في ذلك الاعتقاد، فاذا أخبربما يوافق عقيدته هذه كان قوله صادقاً عند بعض علماء العربية، و قد يكون معذوراً عند الفقيه، لأنه لم يتعمد المخالفة و الكذب، و لكنه ليس من الصدق الذي يعد في علم الاخلاق فضيلة.

و ليس الصدق من فروع قوة معينة، فقد يضاف الى الشجاعة، و قد يكون من العفة، وقد ينتسب الى الحكمة، و قد يشترك في انتاجه أكثر من قوة واحدة، والكذب نظيره في ذلك.

الصدق فضيلة، ومن الوهن بالكاتب أن يدل على كون الصدق فضيلة، و اذا كان فضل الصدق مفتقراً الى الا ثبات فأي شيء بعده يستغني عن الدليل، الصدق فضيلة و كفى، حكم لم يختلف في صحته عقل، و لم يخالف فيه نظام، أما الشرائع السماو ية فان و جوب الصدق هو الحكم الاول من أحكام كل شريعة: (إن اللّه عزوجل لم يبعث نبيا الا بصدق الحديث، و أداء الامانة الى البر و الفاجر)[1].

والصدق أهم القواعد التي يقوم عليها بناء المجتمعات، و تنتظم بها وحدات الامم، واي بناء يبقى للمجتمع، و اية وحدة تبقى للامة اذا انهارت دعامة الصدق بين الافراد، وفقدت الثقة من كل قائل، و كيف يعامل

---

١) الكافي الحديث ١ باب الصدق.

التـاجر في تجارته، والطبيب في عيادته بغير الصدق، و كيف يوثق بعلم العالم و عدل الحاكم، و انصاف الراعي و وفاء الرعية، و كيف يتم كل شيء بغير الصدق.

و على هـذا الأسـاس يمكننا ان نجعل الالتزام بالصدق دليلا على رقي الامة، و ان مقدار رقيها بمقدار التزام افرادها بالصدق في اعمالهم و اقوالهم و انحطـاطهـا بمقدار ما يفشو بينهم من الكذب، يستحيل على الامة أن تتقدم فى حضارتها و معارفها اذا كانت متأخرة في الاخلاق، و اشد الاخلاق تأثيراً في ذلـك هـي الاخلاق العامة التى تؤلف بين الافراد و تربط بين الجماعات، والصدق من أهم هذه الاخلاق.

وللصدق أقسام عديدة، و كل واحد من هذه الاقسام فضيلة و يقابله الكذب في جميع ذلك:

١ـ الصدق فى القول:

اللسان ترجمان النفس، و خطيب الجوارح و أمين الانسان على تبليغ آرائه و افكـاره، واللسـان هو السفير بين الفرد و بين الامة، و هو الصلة التي تـربـط بين المجـتـمـعـات، و تصل بين الامم، و اللسان دليل شرف الانسان ورائـد عـقله و مروءته، و من الجدير بهذه الجارحة العظيمة ان تعرف ما لها مـن الـكـرامة فتؤدي امانتها باخلاص ولا يحصل لها الاخلاص في الاداء إلا بالصدق.

يـقـول الامـام (ع) «مـن صـدق لسانه زكى عمله»[1] و يقول: «لا مـروءة لـكـذوب»[2] الكذب ملق فى اللسان يستبيحه الجاهل لقضاء حاجة و بـلـوغ مـقـصـد، والكذب تلون في الحديث تسببه ضعة فى النفس، وضعف في الارادة، فـلا يمكنه ان يلتزم بالحق فيما يقول، لا مروءة لكذوب، و أي مروءة

١) الحديث ٣ من المصدر السابق.
٢) تحف العقول ص ٩٢.

للانسان اذا اساء الى شرف نفسه، و أى ثقة للغير به اذا خان أمانة نفسه، و حسب الكاذب جهلا أن تكون حاجته اعز عليه من شرفه، وحسبه ضعة أن يتعرض للعنة اللّه و لعنة القانون الأدبى.

أما الذي يكذب هازلا فقد يكون اشد جهلا و اكبر جريمة لأنه يهزأ بحرمات اللّه و حرمات الاخلاق، والكاذب الجاد قديتخفّى بجريمته فلا يطلع عليها السامع ولا تسلب ثقته من النفوس، أما الهازل فهو مهتوك الحرمة لأنه متجاهر بالاثم و «المؤمن لا يخلق على الكذب ولا على الخيانة»[1] وسأله رجل ان يعلمه ما ينال به خير الدنيا والآخرة ولا يطيل عليه فقال له: «لا تكذب»[2].

٢ـ الصدق في العزيمة ـ ويقابله التردد:

و يسمى هذا النوع من الصدق قوة الارادة، و قد سبق البحث عنها فى فضيلة العدل، و سمعنا قول الامام الصادق (ع) في ذلك.

٣ـ الاخلاص: و هو الصدق في وجه العمل و يقابله الرياء.

لكل عمل من الأعمال غاية يقصدها الناس العقلاء حين يصدرون ذلك العمل فالذي يشرب الماء مثلا يقصد بعمله رفع اذى العطش، والذي يكتسب يهدف الى تحصيل المال، والذي يتعبد لر به يقصد التقرب منه، والزلفى لديه، والمخلص في عمنه هو الذي يطلب بالعمل غايته الصحيحة التى يطلبها العقلاء، و يمكن ان يكون لبعض الاعمال غايات متعددة فيكون الا تيان بالعمل لاحدى هذه الجهات اخلاصاً اذا كانت كل واحدة من الجهات تعد غاية صحيحة، والمرائي هو الذي يغير وجه العبادة فيجعلها ذريعة لتحصيل الجاه و يطلب بها المنزلة عند الناس فهو يعبد الناس بعبادة اللّه، و يجعل الدين سلماً لاهوائه و اغراضه، و قد قال الامام الصادق (ع) في تفسير

١) تحف العقول ص ٩٠.

٢) تحف العقول ص ٨٨.

قوله تعالى. ليبلوكم ايكم احسن عملا: «ليس يعني اكثركم عملا، و لكن اصوبكم عملا، و انما الاصابة خشية اللّه، و النية الصادقة والخشية، ثم قال الابقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد ان يحمدك عليه احد إلا اللّه، والنية افضل من العمل»[1] النية الصادقة هي الغاية الصحيحة التي يقصدها الانسان عند العمل، و هي التي حكم الامام بتفضيلها على العمل في آخر الحديث، والعمل الخالص في رأي الامام (ع) هو ما كان اللّه غايته الاولى والاخيرة، و علامة هذا الاخلاص ان لا يريد ان يحمد على عمله من احد سوى اللّه.

و الاخلاص لا يقبل المزاحمة في الغاية حتى بعد اتمام العمل، فاذا احال الانسان وجه النية فقد احال وجه العبادة و غير صفة الاخلاص، و لذلك كان الابقاء على العمل حتى يخلص اشد من العمل، و يقول (ع): «كل رياء شرك، انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، و من عمل للّه كان ثوابه على اللّه»[2] و يقول: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه اللّه انما يطلب تزكية الناس، يشتهي ان يسمع به الناس فهذا الذي اشرك بعبادة ربه» ثم قال: «ما من عبدا سر خيراً فذهبت الايام ابداً حتى يظهر اللّه له خيراً، و ما من عبد يسر شراً فذهبت الايام ابداً حتى يظهر اللّه له شراً»[3].

المرائي مشرك لأنه يعبد أكثر من معبود واحد، و المرائي منافق لانه يظهر مالا يبطن و يلبس السيئة ثوب الحسنة، والمرائي ممقوت عند اللّه لانه يجعل اللّه ذريعة لجرم ووسيلة لاثم، وهو ممقوت عند الناس لانه يخادعهم بما لا يعلمون. ولا بد و أن يكشف الحجاب يوما و يبرز المستور.

---

١) الكافي الحديث ٤ باب الاخلاص.

٢) الكافي الحديث ٣ باب الرياء.

٣) الحديث ٤ من المصدر المتقدم.

ثوب الرياء يشف عما تحته فاذا التحفت به فانك عاري

و المرائي كاذب حتى عند نفسه و ان غالطها بالعلل، و منّاها بالامل: «ما يصنع احدكم ان يظهر حسناً و يسر سيئاً آليس يرجع الى نفسه فيعلم انه ليس كذلك»[1].

٤- الصدق في العمل:

و يريدون به ان يكون ظاهر الانسان موافقاً لباطنه، فلا يقول مالا يعمل، ولا يعمل مالا يعتقد، ولا يعتقد غير الحق فيكون للحق سره و جهره، و للفضيلة قوله وعمله، و هذا المعنى ارفع شأناً من الاخلاص المتقدم، و فيه يقول الامام «ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني و لكن الايمان ما خلص في القلوب وصدقته الاعمال»[2]. وهذا النوع من الاخلاص يشمل الصراحة و يقابل النفاق في القول والعمل. والنفاق يكون على اقسام:

(١) النفاق في العقيدة: فالمنافق في عقيدته هو الذي يظهر الايمان و يبطن الكفر.

(٢) النفاق في العمل، و قد روى الامام الصادق (ع) عن جده النبي (ص) قوله في ذلك: «مازاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»[3].

(٣) النفاق في الصداقة والمعاشرة. و قد قال الامام الصادق (ع) فيه: «ولا خير في صحبة من لم يرلك مثل الذي يرى لنفسه»[4].

٥- الوفاء:

ليس ايسر على الانسان من أن يتخذ الصديق او يعد الوعد، و ليس

---

١) الحديث ١١ من المصدر المتقدم.

٢) تحف العقول ص ٩٢.

٣) الكافي الحديث ٦ باب صفة النفاق.

٤) تحف العقول ص ٩٠.

اعسر عليه من ان يفي بهذه الصداقة او ينجز ذلك الوعد مهما تقلبت الاحوال او تغيرت الحوادث.

كلنا نرغب ان يكثر اصدقاؤنا و اصحابنا، والابتسامة باب الحب والكلمة الطيبة مفتاح القلب و لكن القيام بشؤون الصداقة غير الرغبة فيها. و كلنا نود ان نعد غيرنا بالجميل ففي الوعد لذة وفى الشعور باحتياج الغير الى الانسان متعة. و لكن انجاز هذه العدة غير النطق بها.

وفاء الانسان برهان ثباته على المبدأ. و دليل ثقته بنفسه؛لان ضعيف الارادة و وضيع النفس لا يمكنه ان يفي بشيء. والامام الصادق (ع) يقول في وفاء الصديق: «اذا اردت ان تعرف صحة ما عند اخيك فاغضبه فان ثبت لك على المودة فهو اخوك و إلا فلا»[1] و يقول في الوفاء بالوعد: «لا تعدن اخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه»[2] و يقول: «عدة المؤمن اخاه نذر لا كفارة له فمن اخلف فبخلف اللّه بدأ و لمقته تعرض»[3] يعد الانسان عدة فيرهن شرفه بهذا الوعد و يحبس مروءته بهذا الميثاق، فاذا اخلف بوعده فقد عرض شرفه للثلم و مروءته للانتقاص، و قد ينتحل الاعذار الكاذبة ليسد بها هذا النقص فيضم الى الجريمة جريمة. والوفاء باب عظيم من الاخلاق يكفل للانسان النجاح في اعماله والفوز في معاملاته و يكسبه الثقة في النفوس و الثقة بالنفس، و من اجتمع له هذان الوصفان فقد جمع الدنيا الى الآخرة.

٦ـ الصدق في مقامات الدين:

لأهل الدين في طريقهم الى الله مراحل يجتازونها بالمجاهدة و يفوزون بعدها بالقرب والزلفى السالكون في هذه المراحل قليلون و الواصلون

---

١) تحف العقول ص ٨٧.

٢) تحف العقول ص ٩٠.

٣) اصول الكافي الحديث ١١ باب خلف الوعد.

الى الغاية بعض هذا القليل، والسالك يصل الى غايته حين يعين السبيل و يجتهد في المسير. و لكن قد يخطىء الساعي في السعي و قد يضل السالك عن الطريق فيبعد عن الغاية من حيث انه يتوهم القرب. و يضل من حيث انه يعتقد الهدى و قد قال الامام الصادق (ع): «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً»[١]. و للطريق الذي يوصل الى هذه الغاية علامات و للسعي فيه حدود والانسان الصادق هو الذي عرف السبيل بعلاماته ثم اجتهد في السعي بحدوده. و غيره حاطب ليل و خابط عشواء.

و للامام الصادق (ع) في هذا الصدق كلمات كثيرة فهو يقول في مرحلة الخوف والرجاء: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً. ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملا لما يخاف و يرجو»[٢]. و يقول فى مرحلة الحب: «الحب افضل من الخوف»[٣] و يقول: «من حب الرجل دينه حبه اخوانه»[٤] و يقول في مرحلة اليقين: «ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عندالله من العمل الكثير على غير يقين»[٥] و اقوال الامام الصادق (ع) في هذا الموضوع كثيرة نكل البحث عنها لمن يكتب في عرفان الامام الصادق (ع).

الحب والصداقة

نرى الشيء الجميل او الشيء الجيد فنجد في انفسنا صدى انفعالياً لذلك الجمال او لتلك الجودة، و هذا الشعور النفسي الذي نجده هو الاستحسان، و قد نحس في انفسنا بعد هذا الشعور انجذاباً رفيقاً او عنيفاً الى

---

١) تحف العقول ص ٨٨.

٢) الكافي الحديث ١١ باب الخوف والرجاء.

٣) تحف العقول ص ٨٧.

٤) الخصال للصدوق ص ٥.

٥) الكافي الحديث ٣ باب فضل اليقين.

ذلك الشيء. و هذا الانجذاب هو المحبة، فالاستحسان انفعال النفس عند شعورها بالجمال او الجودة. والمحبة هى رد ذلكالانفعال، والاستحسان دعوة الجمال للنفس اذا شعرت به. والمحبة استجابة النفس لتلكالدعوة.

والمحبة في اولى درجاتها ميل الى الشيء المرغوب، اذا كانت الرغبة فيه لا تكلفنا ان نتحمل المشاق في تحصيله، فاذا اشتدت الرغبة اليه، و كلفتنا ان نتحمل بعض المشاق سميت «وداً» و اذا بلغت اكثر من ذلكالحد سميت «حباً» و هو اسمى درجات هذا الاحساس. والعرفانيون يتجاوزون فى المحبة هذا الحد فيجعلون لها درجات اخرى متفاضلة، و لكل واحدة من هذه الدرجات مراتب متعددة.

يقول الفيلسوف: الحب ميل طبيعي الى المحبوب الملائم، و يقول الاجتماعي: الحب صلة نفسانية متبادلة بين أليفين ورابطة متعادلة بين قلبين، و يقول العارف: الحب قوة خفية تصير المعشوق جزءاً من العاشق. و قد تحيلهما شيئاً واحداً لا يقبل التجزئة. و يقول الاديب: الحب اشراقة الروح على الروح و مصافحة القلب مع القلب.

اما الامام الصادق (ع) فانه يسميه الايمان حين يقول: «و هل الايمان إلا الحب»[١] و قد علمنا ان الايمان الصحيح عند الامام (ع) هو معنى الانسانية الكاملة. والحديث على و جازته يدلنا على منزلة عظيمة للحب في رأي الامام الصادق (ع) و لكن علينا ان نعرف هذا الحب القدسي الذي يفسر الامام به الايمان.

من الاحكام التي لا تقبل التشكيك ان دوام كل عمل أو صفة يكون بمقدار ما لغاية ذلكالشيء من الدوام. والاهتمام به بمقدار ما لغايته من الاهمية. فالذي يطلب رجلا لحاجة ينتهي طلبه اذا حصل منه على تلك الحاجة. والذي يقرأ كتابا ليفهم معناه تنتهي قراءته اذا حصل منه على

١) الكافي الحديث ٥ باب الحب في الله.

الغاية، والحب احد هذه الاشياء التي تطلب لغاياتها، و تدوم بدوامها، و تكون شريفة او وضيعة بشرف الغاية او ضعتها. فالذي يحب احداً لماله ينفد حبه اذا نفد المال، والذي يحب شخصا لغاية غير شريفة ينتهي حبه اذا حرم منها و قد ينقلب الحب بغضا.

والاسلام دين المحبة الصادقة، والاخوة الدائمة. لا يعجبه هذا اللون المشوه من الحب، و بالاحرى هذا التدنيس لطهارة الحب. حب الشهوة الوضيعة والغايات السافلة.

الحب شريف لانه علاقة بين ارواح فيجب ان يكون شريف الخاتمة، والشريعة الاسلامية مثالية في جميع احكامها فيجب ان تكون مثالية في حبها. على ان هذا اللون محدود الغاية فلا يلتئم مع الالفة الدائمة التى يدعو اليها دين الاسلام.

الحب هو الصلة الأولى بين العبد و بين ربه، وهوالعلاقة المتينة بين الانسان و بين دينه. فيلزم أن تكون الصلة بين المسلمين ظلاً لذلك الحب و قبساً من ذلك النور فان «من حب الرجل دينه حبه اخاه»[1]. كما يقول الامام الصادق عليه السلام و «من حب الشيء حبّ جميع آثاره» كما تقول الفلاسفة. و ليس الحب شيئاً يكال جزافا بالمكاييل، ولا ينشأ مصادفة من غير سبب، يحب الانسان ربه لانه المنعم الذي اوجده بعد العدم. ثم كمله بعد النقص وهداه من الضلالة. و لانه الكامل المطلق الذى يجب ان يحب لانه كامل. و يحب الانسان دينه لانه الطريق الذي يصل به الى السعادة و الوسيلة التى تضمن له الفوز بالخير الاعلى. و يحب الانسان أباه لانه سبب وجوده و هو الكافل لتربيته. و يحب المسلم أخاه المسلم لانه عديله في الدين و شريكه في الكمال، و يحب الانسان اخاه الانسان لانه مثيله في الحقوق، و نظيره في استحقاق السعادة، هكذا ينظر الدين الاسلامي الى الحب، و

---

١) مستدرك الوسائل الجزء الثاني ص ٣٦٩.

هكـذا يجب ان يكون، «و هل الايمان اِلا الحب» والعلاقة بين المتحابين اذا اقيمت على هذا الاساس تحطمت دونها كل غاية و سهلت في سبيلها كل وسيلة، و كانت متعادلة بينهما فيحس احدهما لصاحبه بما يحس به الآخر لانه صلة بين نفسين و بالاحرى بين عقلين. اما حب الشهوة فلا تكون له هذه الخاصة لانه صلة بين غريزة و جسد والجسد لايحس بما يحس به القلب.

على ان حب الصديق لكماله يكون اكبر لذة واكثر اتصالا و بقاءاً، لانها لذة عقلية. والقوه العقلية اكبر لذة لانها اقوى ادراكا واسمى غاية. و يدلنا على هذا انا نجد القلوب مجتمعة على حب الكمال اينما وجد و على تعظيم الكامل اينماحل و ان فصلت بيننا و بينه عشرات القرون، فالذي يحب «عنترة» لشجاعته او يحب «حاتما» لجوده لم يحبهما لغرض يرجع الى قوة الغضب او الى قوة الشهوة، و لكنه يحبهما لانهما متصفان بصفتين من صفات الكمال، وهو يلتذ بهذا الحب كلما خطرت هذه الناحية في قلبه.

والصداقة مادة من مواد الاخلاق، والصديق صورة ترسم للانسان مستقبله و تحدد له سعادته و كماله، و قد قال الشاعر العربى:

عن المرء لا تسأل و سل عن قرينه

افكل قرين بالمقارن يقتدي

ينشأ الانسان و تنشأمعه غريزة التأسي وحب المحاكاة، و هو يعلل بها كثيراً من افعاله، و يبنى عليها كثيرا من عاداته. يرتكب الانسان الجريمة لان نظيره قد ارتكب مثلها او اشد منها. و يعمل الاحسان لان امثاله يعملون ذلك. حتى الطفل فانه يصدر كثيرا من اعماله لمجرد الاقتداء وحب المحاكاة و كم لهذه الغريزة من مظهر، و كم لها من نتيجة حسنة او قبيحة، و بديهي ان هذه الغريزة اذا قارنت الحب والصداقة كانت اشد تأثيراً في الانسان.

و قد اثبتت التجربة ان المجاورة والاتصال يؤثران حتى في

الجمادات.

كالريح آخذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

فمن الجدير بالانسان ان يختار موضعا لصداقته، لانه يختار مادة لأخلاقه و يضع رسماً لمستقبلة وحداً لسعادته. من حقوق الحب على الانسان ان يختارله موضعاً، و من حقوق النفس ان يختار لها مهذباً. و قد قال الامام الصادق (ع): «من لم يجتنب مصادقة الاحمق اوشك ان يتخلق باخلاقه»[١]. و قال: «لا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره»[٢] وللامام الصادق (ع) كلمات تتضمن قواعد مهمة في الصداقة نذكرها من غير تعليق:

«لا خير في صحبة من لم يرلك مثل الذى يرى لنفسه»، «اياك و مخالطة السفلة فان السفلة لا تؤدي الى خير»، «احب الاخوان على قدر التقوى»، «لا تعتد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات»، «عليك باخوان الصدق فانهم عدة عند الرخاء، و جنة عند البلاء»، «صحبة عشرين سنة قرابة»، «ضع امر اخيك على احسنه، ولا تطلبن بكلمة خرجت من اخيك محملا»، «الصفح الجميل ان لا تعاتب على الذنب، والصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى»، «لا تذهب الحشمة بينك و بين اخيك و ابق منها، فان ذهاب الحشمة ذهاب الحياء و بقاء الحشمة بقاء المودة»، «احب اخواني الي من اهدى الي عيوبي»[٣]، «اذا احببت رجلا فاخبره بذلك فانه اثبت للمودة بينكما»[٤] «انظر قلبك فاذا انكر صاحبك فان احدكما قد احدث»[٥].

---

١) امالي الصدوق ص ١٦٣.

٢) مصدر هذه الكلمات تحف العقول بين ص ٨٧ و ٩٣.

٣) الكافي الحديث ٥ باب من تجب مصادقته.

٤) الكافي الحديث ٣ باب اخبار الرجل اخاه بحبه.

٥) الكافي الحديث الاول من نوادر باب المعاشرة.

(٧)

ميزان الخلق الصحيح

«من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»

الامام الصادق(ع)

(٧)

ميزان الخلق الصحيح

غاية علم الاخلاق أن يوصل الانسان الى الكمال الاعلى الذي يطلبه بأعماله وصفاته، و لهذا فان بعض الخلقيين يسرف فيقول: «علم الاخلاق أشرف العلوم جميعاً لانه يوصل أشرف مخلوق الى أشرف غاية». والحكم الذي لا يقبل الشك فيه أن علم الاخلاق من أشرف العلوم ومن أرقاها.

علم الاخلاق رائد الانسان الى السعادة و دليله على الخير الاعلى، و هو مرشد النفوس الى الفاضل من الصفات والفاضل من الاعمال. ومن الجور الذميم ان تترقب منه اكثر من هذا. لعلم الاخلاق أسوة بأخواته من العلوم التي تطلب لغاياتها. عليه ان يمهد السبيل الى الغاية و يوضح الطريق الى المقصد. و على العالم الخلقي ان يكون طبيباً ماهراً يعين الداء بدقة و يصف الدواء بمهارة و ليس عليه بعد هذا ان يضل الضال أو يصل الواصل. فان لحصول النتيجة شروطا اخرى وراء معرفة المقدمات، قد يخطىء الانسان الهدف الذي يريده لانه أساء التطبيق، او لم يحسن استعمال العلاج،

والمحاسب عن هذا التقصير هو الانسان نفسه ، لا علم الاخلاق ، و قد اوضح الامام هذه الناحية بقوله : « ان نفسك رهينة بعملك »[١] ، و قوله : « قد جعلت طبيب نفسك ، و بيِّن لك الداء و عرفت آية الصحة و دللت على الدواء فانظر كيف قيامك على نفسك »[٢] علم الاخلاق هو الوسيلة التي تكشف للانسان الداء ، و هو الذريعة التي يعرف بها آية الصحة ، والمرشد الذي يدله على الدواء ، ثم يوكل استعماله اليه فلينظر كيف قيامه على نفسه . اما قول الامام في هذا الحديث : « جعلت طبيب نفسك » فانه يجري على استعارة جميلة و كثيراً ما كررها الخلقيون في كلماتهم. و بين الطب و علم الاخلاق نواحٍ كثيرة من وجوه الشبه .

للانسان صورة ظاهرة يفحصها الطبيب من حيث الصحة والمرض ، وله صورة باطنة يبحث عنها الخلقي من حيث التوازن والانحراف ، و لكل من هاتين الصورتين طوارىء تخرجها عن الاستواء. والتوازن في صفات الجسم الذي يطلبه الطبيب لانه صحة ، له نظير في النفس يطلبه الخلقي لانه كمال. والانحراف الذي يدافعه الطبيب عن البدن لانه مرض جسمي . يحارب الخلقي مثله في النفس لانه مرض روحي ، و اذا كان حصول الكمال النفسي سعادة للانسان كما يقول الخلقيون ، فان حصول الصحة سعادة للبدن كما يقول الاطباء ، و كثيرا ماسرت امراض البدن الى النفس و تعدت امراض النفس الى البدن والمتأخرون من الخلقيين والنفسيين يقولون : « العقل الصحيح في الجسم الصحيح » .

الانسان هو طبيب نفسه و هو المسؤول عن تزكيتها و تهذيب اخلاقها و لكن على علم الاخلاق ان يدله على آية (الصحة) و أن ينصب له ميزانا عادلا يميز به بين صحيح الملكات و فاسدها، و خير الاعمال و شرها،

---

١) الكافي الحديث ٨ من نوادر باب الاستدراج .

٢) الحديث ٦ من المصدر المتقدم .

ليألف الحسن منها و يجتنب القبيح، و قد علمنا في الفصول السابقة ما يتكفل لنا بذلك، فقدعرفنا أن فضائل الملكات اوساط ورذائلها انحرافات و اطراف، و عرفنا أن المقياس الذي تعلم به هذه الاوساط هو الشريعة الإلهية المعصومة، و بهذا الميزان نستطيع أن نعرف الخلق الصحيح فنتوجه اليه في سلوكنا، وأن نحكم على العمل بأنه خيروانه صواب اذا وافق الخلق الكريم.

ولكنناقد نخطىء الهدف المقصود و ان كنا قد علمنا جميع ذلك، و طبقناه على اعمالنا و عاداتنا.

قد نعين الاوساط التي حكمنا بانها فضائل، و نميز الاعمال التي تختص بها هذه الاوساط ثم نسعى الى تحقيقها حتى يصبح الخلق صفة من صفاتنا، و نحن مع هذا الجهد كله لم نتصف بالفضيلة لانناقد اضعنا الغاية التي من أجلها حببت هذه الفضيلة.

ليست الاوساط بمطلقها فضائل، فقد تطلب هذه الاوساط لغير غاياتها، والخلق الصحيح ما طلبت به الغاية الصحيحة. والقاعدة التى يذكرها الخلقيون لذلك: أن يتصف الانسان بالفضيلة لانها فضيلة. و يجتنب القبيح لانه قبيح. اما الامام الصادق (ع) فيقول في ذلك: «من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»[1] الحسنة هى العمل الخير اذا قصد به الوجه الصحيح، والسيئة عمل الشر، و عمل الخير ايضا حين يقصد به غاية غير صحيحة. فاذا سر الانسان بحسنته واستاء من سيئته كان هذا دليلا على تركز الخلق الصحيح في نفسه لان السرور هو التذاذ الانسان حين يرضي رغبة من رغباته. والمساءة هي التألم الذي يحصل عند انقماع الرغبة.

و هذا الذي يذكره الخلقيون هنا لا ينافي ما تقدم في تحديد معنى الفضيلة و انما هو شرح وايضاح.

الفضيلة أن تعتدل الملكة النفسية فلا تشذ ولا تنحرف. و اذا مالت

---

١) اصول الكافي الحديث ٦ باب المؤمن و علاماته.

بهـا الاهـواء و اسـتخدمتها الغايات فقد شذت و انحرفت.و الفضيلة أن تسير النـفـس في عـمـلهـا و في صـفـاتها على هدى العقل وارشاده، فاذا قصدت بـالـعـمـل أو بـالـصفة غاية وضيعة فقد بعدت عن حكمة العقل و تعامت عن ارشـاده. والـفـضيلة أن يتوسط الانسان في ملكاته، و أن يتسامى في غاياته، أمـا هـذا الـذي تحـدثـنـا عـنـه فهو باطل يشبه الحق، و ظلال يشبه الهدى، وسيئة تلبس ثوب الحسنة.

(٨)

أصــــول الـــعـــلاج عند الخلقيين

«اقصر نـفـسـك عما يـضـرها قـبـل أن»
«تـفـارقـك ، واسع فى فكاكها كما تسعى»
«في طـلـب معيشتك فان نفسك رهينة»
«بعملك .»

الامام الصادق(ع)

(٨)
أصول العلاج عند الخلقيّين

تحدثنا عن العلاقة المتينة بين علم الطب وعلم الاخلاق، و علمنا كيف يكون الاتصال وثيقاً بين العلمين، و كيف يشبه الطبيب بالخلقي والخلقي بالطبيب، و ليس الأمر بين العلمين مقصوراً على المشابهة فقط، فان بين العلمين اتصالا هو اكثر من المشابهة، و رابطة هى أشد من التماثل، على أن بين العلمين فروقا واضحة هى الفروق التي تكون بين علم و علم آخر، و من هذه الفروق التي نلاحظها بين العلمين أن الادواء التي يدافعها الطبيب عن الجسد، والتي يمانعها الخلقي عن النفس كل منها انحراف و شذوذ و تخلف عن كمال محبوب، و لكنا نجد ان الادواء التي تحدث في الجسد تكون مبغوضة للانسان، ولا يمكن أن تكون مرغوبة له إلا في احوال استثنائية لا يصح القياس عليها، و نجد ادواء النفس على العكس من ذلك مرضية للنفس و محبوبة لها عند اكثر الناس.

والسر في هذا الحب العجيب ان هذه الادواء تكفل للنفس بعض مشتهياتها و تحقق لها بعض ميولها و رغباتها ، والنفس تألفها لهذه اللذات الزائفة ، و إن كانت ادواء فاتكة و سموماً قاتلة ، و قد يبلغ الأمر ببعض النفوس الوضيعة أن تنفر من الخلق الكريم لأنه يمنعها عن تحصيل هذه اللذات .

ادواء الجسد في الاكثر تصحب آلاما محسوسة والانسان يمقتها لانه يحس بآلامها.اما ادواء النفس فلا تكون كذلك لانها تسبب آلاما معنوية و انحطاطاً كمالياً ، و قصير النظر لا يعبأ بهذا النقص ، ولا يعتني بهذا الالم ، لانه يجهل ما يسميه الخاصة كمالاً او رقياً معنوياً .

(١) و اذن فأول علاج يصفه علم الاخلاق لهذه الادواء هو العلم لانه يرفع النفس من هذه الضعة ، و ينقذها من هذا الانحطاط ، و هو الحاسة الدقيقة التي يدرك بها الانسان لذة الكمال و ألم الشقاء ، و قد سمعنا احاديث الامام الصادق (ع) في العلم .

(٢) للباحث الخلقي غايتان متساويتان في الاهمية : (١) تهذيب الملكات السافلة و احالتها الى اخلاق صحيحة . (٢) احتفاظ الانسان باخلاقه الصحيحة بعد التهذيب . فالاعتدال الخلقي جهاد في جميع ادواره ، و هو جهاد لانه خروج على غريزة و تمرد على قوة ، و هو جهاد لانه ارغام ارادة و قسر عادة ، و هو جهاد لانه حمل للنفس على ما تكره ، و صرف لها عما تحب ، و هو جهاد لان الفضائل اوساط ، و معرفة هذه الاوساط تستدعي حزما والاقامة عليها تستدعي عناءاً ، و هو قبل هذا كله جهاد لانه بحث عن عيوب النفس المحبوبة ، والحب كما في المثل المشهور: يعمي و يصم . واذا كانت للنفس رغبات و اهواء تزاحم الخلق الصحيح في ابتداء تكوينه ، فان لها نظائر من هذه الرغبات تزاحم الخلق الصحيح في اوقاته الاخرى والنفس من اجل هذه الرغبات المتزاحمة في جهاد متواصل .

و معنى هذا ان العلاج الخلقي في جميع ادواره يعتمد على الصبر والثبات، فبالصبر تغرس الفضيلة في النفس، والصبر هو الذي يتعاهدها لتنمو و ينمّيها والصبرهوالعدة التي يتدرع الانسانُ بها امام الاخطار، وهوالخلق الاول الذي يجب تهذيبه ليكون عوناً على تهذيب غيره، و هذا هو معنى قول الامام الصادق(ع): «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد كذلك اذا ذهب الصبر ذهب الايمان»[1] وهو معنى قوله ايضاً «رأس طاعة اللّه الصبر والرضا عن اللّه فيما احب العبد او كره»[2].

الصبر وقوف النفس امام الشدائد، و ثباتها عند هجوم النوازل فهو فرع من فروع الشجاعة، والشدائد التي تثبت لها النفس قد تكون من الامور الخارجة عن النفس كصروف الدهر وآلام الحياة، وقد تكون من الامور المتعلقة بالنفس كالآلام التى تحصل من مكافحة طغيان الشهوة وجموع الغضب، والثبات عند جميع هذه الآلام شجاعة.

الصبر على جهاد قوة الشهوة شجاعة لا عفة، و لكن ثمرة هذا الجهاد هي العفة، والصبر على كفاح قوة الغضب شجاعة و ثمرة هذا الكفاح شجاعة اخرى.

في العلاج الخلقي مصاعب، و هو جهاد مستمر، و لكن هذه المصاعب لاتحد من قدرة الانسان شيئاً فالشخص حين يصدر العمل قادر على تركه، و هو حين يتركه مختار في فعله.

في وسع الانسان ان يفكر في غايات اعماله فيحترز عن العمل القبيح، و اخيراً عن الخلق الذميم. في وسعه ان يفكر في غاية العمل قبل اصداره، ثم هو في سعة من الفعل او الترك، لأن له ارادة و اختياراً. و اذا استطاع ان يخالف الملكة في المرة الاولى كانت مخالفتها في المرة

---

١) الكافي الحديث ٢ باب الصبر.

٢) الكافي الحديث ١ باب الرضا.

الثانية عليه اسهل، و هي في المرة الثالثة اخف مؤونة واكثر سهولة. و هكذا تأخذ الشدة بالضعف و تعود الملكة الثابتة حالة زائلة، و يصبح الخلق السيء اثراً بعد عين.

و ليحذر ان تغلبه العادة الاولى قبل ان يكمل التمرين على مخالفتها، فانها اذا غلبته مرة افسدت عليه كثيراً من عمله و احتاج الى كفاح جديد، والامام الصادق (ع) يشير الى هذا الطريق من المجاهدة بقوله «قف عند كل امر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل ان تقع فيه فتندم»[١] و قوله: «اياك و مرتقى جبل سهل اذا كان المنحدر وعراً»[٢].

(٣) في وسع الانسان الحازم ان يقف من نفسه موقف المحاسب الشحيح، فيستعرض صفاتها بالنقد والتمحيص، و سيوقفه الفحص على مواضع الخلل من ملكاته، و من السهل عليه بعد هذا ان يوجد في نفسه شوقا الى الفضيلة التي تباين ذلك الخلق السيء الذي عرفه من نفسه، فاذا اوجد في نفسه هذا الشوق فقد تم له كل شيء

اما معرفة عيوب النفس فسنذكر لها طرقا عديدة بعد هذا، و اما الشوق الى الفضيلة فسبيله الفكر.

ليحدث الانسان نفسه بمحاسن تلك الفضيلة، و ما تعقبه من آثار طيبة، و عاقبة حميدة و ما يناله اصحابها من مكانة سامية و شأن كبير، ليحدث نفسه بذلك، و ليثق ان الشوق يحصل له قطعاً، لأن النفس تحب الكمال و تطمح الى الارتقاء، ومن الخير له ان يطيل التفكير بذلك، لتثبت الرغبة و يتأكد الميل.

و اذا تم للانسان النجاح في هاتين المرحلتين فليجتهد بعد هذا في الاعمال التي توافق الفضيلة التي اشتاق اليها، و كلما تكرر العمل

١) تحف العقول ص ٧٤.

٢) تحف العقول ص ٩٠.

ثبتت العادة الجديدة، وانهار بناء الخلق القديم.

وقد قال الامام الصادق (ع) في المرحلة الاولى من هذا العلاج: «أنفع الاشياء للمرء سبقه الى عيب نفسه»[١] وقال في المرحلة الثانية منه: «التفكير يدعو الى البر والعمل به»[٢] وقال في باب الزهد: «و انما ارادوا بالزهد الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»[٣] والأئمة من اهل البيت (ع) كثيراً ما يعتمدون هذا الطريق في تهذيب الاخلاق، وقد قدمنا للقارئ نموذجا صغيرا من كلمات الامام الصادق في ذلك.

(٤) ذكر علماء الاخلاق لمعرفة الانسان عيوب نفسه طرقا متعددة نشير الى بعضها فيما يأتي: -

(أ) الخلطاءوالأصحاب:

يحاول الانسان أن يرى صورته الظاهرية فيمتنع عليه أن يراها بغير المرآة، و يحاول ان يطلع على عيوب نفسه فيتعذر عليه ذلك بغير الصديق، صديقك غيرك فلا يصعب عليه ان يطلع على نقائصك، و قد جعله الحب الصحيح كالجزء منك فهو لا يخفي عليك شيئا تكرهه من نفسك، «ولا خير في صحبة من لم يرلك مثل الذي يرى لنفسه»[٤] و لذلك شرطوا أن يكون الصديق من اهل الامانة والدين، و قد سمعنا قول الامام الصادق (ع): «أحب اخواني الي من اهدى إلي عيوبي»[٥]، و هو يقول ايضا: «من رأى اخاه على امر يكرهه فلم يرده عنه و هو يقدر عليه فقد خانه»[٦].

(ب) اجتنب ما تعده قبيحا من غيرك:

---

١) تحف العقول ص ٨٩.

٢) الوسائل الحديث ٥ باب استحباب التفكر من كتاب الجهاد.

٣) الكافى الحديث ٥ باب الزهد.

٤) تحف العقول ص ٩٠.

٥) الكافي الحديث ٥ باب من تجب مصادقته.

٦) امالي الصدوق ص ١٦٢.

تنظر الى الناس الآخرين فترى عيوبا كثيرة تظهر فى أعمالهم و اقوالهم ، فاذا أردت اصلاح نفسك فاجتهد أن لا تعمل نظير تلك الاعمال ولا تفكر في وجود تلك النقائص فيك ، فان النفس تنكره اذا كان خفيا ، و تعتذر عن ارتكابه اذا كان ظاهرا ، فتضيع من منك الفرصة ، و تذهب عليك الوقت .

(ج) استفد من لسان عدوك ما خفي على عين صديقك .

قد يستر الحب بعض نقائصك على الصديق ، و قد يتجاهل بعض عيوبك حذرا من اساءتك ، و لكن العدو لا تخفى عليه نقائصك لانه يراعيك بعين ساهرة ، و هو لا يختشي من ان يسيىء اليك ، فاجتنب عما ينسب اليك من الصفات . والافعال ولا يضرك ان يكون كاذباً اذا برأت نفسك من العيوب .

(د) اذا اتهمت نفسك بخلق ذميم و أردت موقع هذه التهمة من الصحة فحاول ان توجد عملا يخالف ذلك الخلق ، فاذا صعب عليك العمل فاعلم ان ذلك الخلق من صفاتك .

(هـ) تستطيع النفس ان تخفي نقائصها على الانسان ، و لكنها لا تستطيع ان تخفي عليه ميولها و اهواء ها ، و هذا الهوى أثر لازم للخلق السيىء فاذا خفيت عليك نقائصك فاجتنب اقرب الامرين الى هواك ، و يريدون من الامرين الفعل والترك .

٥ـ الخوف والرجاء

الخوف انفعال نفساني يحصل للانسان او للحيوان حين يتوقع صدور أمر يكرهه أوفوات شيء يحبه ، وهو احدى الغرائز التي تولد معه وتنشأو تصحبه في جميع احواله ، وكم جلبت له هذه الغريزة من خيرات ، و كم جنت عليه من شرور ، والرجاء هو انتظار النفس حصول امر ترغب فيه ، و موضع الخوف والرجاء فى الاكثر هو الشيء اذا كان مشكوك الوقوع. و للانسان بين هاتين الملكتين شؤون و اطوار ، فقد يشتد به الخوف حتى يكون

يأسا، وقد يفرط به الرجاء حتى يكسبه تسامحاً و اهمالاً وقد يعتدلان فيكونان مزيجا خلقيا يبعث الى العدل ويرشد الى الخير، وقد قال الامام الصادق (ع) في ذلك: «أرج الله رجاءاً لا يجرّئك على معاصيه، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»[1] وقال: «لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا راجيا، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف و يرجو»[2]..

الخوف والرجاء صفتان نفسانيتان ولكنهما لا يثمران الخير حتى يكون لهما مظهر في السلوك و تأثير في العمل هذا.

الخوف العملي اذا اشتد يسمى عند العلماء الخلقيين ورعاً. واذا اشتد الورع يسمى تقوى: «وان قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى»[3].

---

١) امالي الصدوق ص ١٠.

٢) الكافي الحديث ١١ باب الخوف والرجاء.

٣) الكافي الحديث ٧ باب الطاعة والتقوى.

المصادر

الكافي لثقة الاسلام محمدبن يعقوب الكليني، وقد اعتمدنا في ضبط احاديثه على النسخة المطبوعة في هامش كتاب مرآةالعقول للمجلسي .
وسائل الشيعة للحر العاملي.وقد اعتمدنا في ضبط أحاديثه على النسخة المعروفة بعين الدولة .
أمالي الشيخ الصدوق .
الخصال له ايضاً .
علل الشرائع له أيضاً .
جامع السعاداتللنراقي طبع ايران .
الاحتجاج للطبرسي طبع ايران .
تحف العقول للحسن بن ابي شعبة .
مستدرك الوسائل.للميرزا حسين المحدث النوري .
الجزء الخامس عشر من كتاب بحار الانوار للمجلسى .
علم الاخلاق« نيقولا ماخوس »تعريب الاستاذ احمد لطفي السيد بك
الاخلاق.للاستاذ أحمد أمين .
الخلق الكامل.لمحمد أحمد جاد المولى بك .